رابطة الأدب الإسلامي العالمية
مكتب البلاد العربية


الأرض الجريحة

(قصص قصيرة)

صورية إبراهيم مروشي

العبيكان
Obekan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مروشي، صورية إبراهيم
الأرض الجريحة./ صورية إبراهيم مروشي.- الرياض، ١٤٣٠هـ
٢٢٤ ص؛ ١٤ × ١٢سم
ردمك: ٢-٩٢٦-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨
١- القضية الفلسطينية ٢- فلسطين - تاريخ - الاحتلال
أ- العنوان
ديوي ٩٥٦,٩٠٤ ٨٣٨٦ / ١٤٣٠

رقم الإيداع: ٨٣٨٦ / ١٤٣٠
ردمك: ٢-٩٢٦-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر
الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة
هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨
ص. ب ٦٧٦٢٢الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan
الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة
هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩
ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات



الأرض الجريحة

تململت الأرض في نومها صباح يوم جميل، وفتحت عينيها فاستقبلتها أشعة الشمس الدافئة تداعبها في حنو، وابتسمت الأرض لرفيقتها الدائمة، وقالت متأهبة للنهوض:

«صباح الخير يا صديقة العمر، ورفيقة درب الحياة!!.»..

فقالت الشمس، مبتسمة كعادتها، وهي لا تزال تداعب الأرض بأشعتها الذهبية:

«صباح الخير أيتها الأم الرؤوم، كيف حالك هذا الصباح؟..»..

«في أحسن حال... إنني سعيد جدًّا... انظري إلى السماء كيف تظللنا بزرقتها الهادئة، تحمينا من كل نوائب الدهر كما يحمي السقف بيتًا هادئًا مطمئنًا من برد الشتاء وحر الصيف... واستمعي إلى زقزقة العصافير، وهي تغادر أعشاشها الصغيرة نحو الأفق الرحب، إن أصواتها الصباحية تزيدني غبطة وسرورًا، وتلك الحيوانات المختلفة الأشكال والألوان والأحجام، انظري إليها وهي تزحف وتمشي وتقفز على ظهري في دعة وأمان بين الغابات والمروج الخضراء تبحث عن طعام لها ولأولادها..»..

صمتت الأرض وهي تتأمل تلك المخلوقات تسيح على سطحها أو تحلق في السماء، سعيدة بذلك اليوم الجميل، وارتسمت على وجهها ابتسامة أضاءت الكون كله، فزادته جمالاً على جماله، وارتفعت الشمس في الأفق فخرج الإنسان من بيته قاصداً عمله، فقالت الأرض مشيرة إليه:

«انظري أيتها الشمس الحبيبة، إلى هذا المخلوق الغريب!!!... إنه خليفة الله على كوكبي الأخضر، وهو برغم كونه خليطاً من خير وشر إلا أنه – والحق يقال – عمرني بعمله الدؤوب، وطورني بمخترعاته الذكية، وجعلني بغير الوجه الذي كنت عليه منذ آلاف السنين!!.. إنني أعترف أنه أحق بالخلافة من سائر المخلوقات الأخرى... ولكن..»..

«ولكن ماذا؟!..». سألت الشمس حائرة.

«إن للإنسان أعداء كثيرين، وأول عدو له.. نفسه!!».

«ماذا تقصدين؟!».

«إنني أمّ للإنسان والحيوان، ولكل حي يدب على ظهري، مني خرجوا وعليّ درجوا، وإليّ يعودون بعد طول طواف، وما تعدى الحيوان – منذ غابر العصور – على أقرانه أو على بني الإنسان ظلمًا.. إنما يسعى لجلب الغذاء ودفع مضرة الأعداء، ولكن الإنسان جشع طماع لا يقنع بما بين يديه، فيبادر إلى الاعتداء على غيره».

فقالت الشمس ضاحكة، وهي تحاول تغيير دفة الحديث:

«لقد كان ذلك في الماضي البعيد يا أُماه... لكن الحمد لله، فمنذ سنوات كثيرة، ونحن نعيش في سلام نستمتع بما أعطانا الله من نعم».

وتنبهت الأرض مرة أخرى إلى الجمال المحيط بها، فقالت معقبة على حديث الشمس الطيبة:

«معك حق، لندع ذكر الآلام ولنستمتع بهذا الجمال وسط هذا الجو البديع، ألا.. ما أروع صنع الله، وما أبدع خلقه!!».

مضى النهار كحلم جميل، واختفت الشمس سعيدة بيومها بعد أن ودعت صديقتها، وأطل القمر بنوره الوضاء يتمسح بالأرض، فهشت للقائه، وسعدت بمقدمه، وقالت له عاتبة:

«تأخرت في الظهور يا جليس وحدتي، وأنيس خلوتي، فأين كنت؟!».

فقال لها يداعبها بنوره ويراقصها بأنغام صوته الشجي الهادئ:

«إنني لا أتأخر في الظهور ولا أغيب أيامًا إلا لأظهر أكثر إشراقًا، وأضيف إلى جمال الكون بهدوئه وسكونه جمال ضيائي وسحر نوري رفقة النجوم المتلألئة في السماء... كل هذا من أجل سعادتك أنت أيتها الأم الحبيبة».

«ومن أجل سعادة الإنسان أيضًا، فهو لا يقل عني حبًّا لك وشغفًا بمقدمك!!».

قضت الأرض ليلتها في عرس بهيج تناجي القمر، وتراقص النجوم الصغيرة، وتسابق الشهب المتناثرة حتى غلبها النعاس، فنامت هانئة وابتسامة ساحرة تغطي ربوعها الشاسعة.

استيقظت الأرض في اليوم المقبل على أصوات الحيوانات تهرب

مذعـورة ووقع أقدامها يضـرب أقطاب الأرض متفرقة فـي كل اتجاه، نظـرت إلى السماء فإذا وجه الشمس قد اختفى وراء دخان أسود كثيف جعـل الأرض تعتقـد أن النهار لـم يطلع بعد، ولم تعـرف ماذا يحدث، فالحيوانات كانت مشغولة بالهرب من خطر جسيم.

فجـأة انفجـرت قنابـل هنا وهنـاك، فخـرج الإنسان يحـذو حذو الحيوان هاربًا على غير هدى، وانتشرت الجثث والأشلاء في كل مكان، وأضحى كل شيء ينبئ بالموت والدمار.

بكـت الأرضـ دمًا على الأذى الـذي لحق بها، والجـراح التي ألمت بجسدها، فاختلط دمها بدم الموتى والجرحى، وامتزجت آهاتها بآهات اليتامـى والثكالى والمفجوعين، ولم يكن بكاؤهـا أقل حدة وإيلامًا من بكاء النساء والرجال والأطفال.

دوى صوت الأرض يسأل:

«من السبب؟... من الفاعل؟!..»..

فإذا منادٍ ينادي مجيبًا».

«الإنسان!!»..

لم تشك الأرض لحظة أنه هو، فكتمت أنين نحيبها وانطلقت تحدث نفسها:

«لمـاذا؟!.. لقـد كان الإنسـان – كمـا الحيوان – يعيشـ في دعة وأمـان، هـادئ البـال مطمئن الفـؤاد، والـرزق وفير يضمنـه مـالك كل شيء، فلم الخلاف وعلام الاختلاف؟!..».

وسمعت الناس يتصايحون:

«إنهـا الحرب... الثـورة... الفتنة الكبـرى... كل شيء هالك، ولن يبقى مخلوق على الأرض!!..»..

وفزعت الأرض:

«لمـاذا الحرب؟... لمـاذا الثـورة؟... ماذا ينقص الإنسان حتى يدمر بيديه كل ما بناه خلال سنوات... لماذا؟».

وسمعت أحد البشر يقول:

«إننا نقاتل من أجل الحدود وسيادة البلاد..»..

فقالت فاغرة فاها من الدهشة:

«الحدود؟!... الحدود قيود... إن الله خلقني مطية للناس أجمعين، يقيمون على ربوعـي حيث شاؤوا، فلماذا يقتسمونني بحدود وهمية، ثم يتقاتلون من أجلها؟!!.»..

وقال آخر:

«إن بلـدًا قويًّـا طمع في خيرات بلد ضعيـف، فاحتله بالقوة وها هو الشعب يثور عليه لطرده بالقوة أيضاً».

فقالت الأرض متألمة:

«بلد قـوي وبلد ضعيف؟!!... إن البلـدان كالإنسان.. قوته وضعفه، تكمن في صلاح الأعمال وتسخير العلم فيما ينفع ولا يضر، ويصلح ولا

يفسد... بالأخوة والتعاون يزدهر الكون ويزهر، وبمثل هذه الاعتداءات يتحطم ويندثر، ولماذا يعتدي بلد على بلد آخر، أو جار على جاره، والخير وفير يكفي الجميع؟!..»..

وأرهفت السمع، فإذا شخص ثالث يقول:

«إنها ثورة داخلية والصراع فيها شديد على تاج الملك أو كرسي الرئاسة!!..»..

فعجبت الأرض وتساءلت بينها وبين نفسها:

«الملك؟ وهل للكون كله مالك للملك غير اللّه؟!... أليس الملك ظل اللّه على أرضه يحكم فيها بالعدل من أجل سعادة البشر؟ ألا تختار الأمة ملكها أو رئيسها لحكمته وسداد رأيه وقدرته على لَمِّ شمل الشعب على كلمة واحدة من أجل هدف واحد؟!.. فلم التقاتل ولا يستحق الملك إلا من هو أهلٌ له؟..»..

وكلما انتقلت الأرض بعيونها الدامعة على بقاعها المتألمة سمعت صراخًا حينًا.. وهمسًا أحيانًا أخرى، وها هي ذي في مكان قصيّ تسمع أناسًا يتحدثون، قال أحدهم:

«إننا نقاتل لاختلاف أدياننا ولغاتنا، وحتى لتباين ألواننا... نحارب ليسود ديننا، وتعم لغتنا، وليكون جنسنا سيدًا لغيره من الأجناس الأخرى... كل شيء يدفعنا لكي نقاتل أو نقتل..»..

فقالت الأرض، وقد ذهبت بها الحيرة والعجب كل مذهب:

«الدين؟!... الإنسان حرٌّ في اعتناق الدين الذي يرتضيه لنفسه... والدين عنـد اللّه الإسلام... اللغة؟!... هي وسيلـة للتواصل والاتصال وليسـت للخـلاف والانفصال، ومـن تعلم لغة قـوم أمن شرهـم، ولغة القـرآن هي أم اللغات...!! اللـون والجنس؟!... ليس لأبيض على أسود، ولا لعربي على أعجمي فضل إلا بتقوى اللّه والعمل الصالح..»..

وانـزوت الأرضـ تراقب فعــل الإنسـان علــى سطحهـــا، وآلمتها جرائـم هذا الابن العـاق في حق نفسه وبني جنسه وفي حقها أيضًا، إذ كيف يقـابل حبها لـه وحنـوها عليه بكل هـذه الوحشيـة وتلك القسـوة؟! وأيقنت أن روح قـابيل عـادت مـرة أخرى تزرع المـوت والخراب وتسقي التراب بالـدم والدموع وتغـذي في الإنســان جانبـه الشرس المليء بالأحقاد والضغـائن، غير مبالية بروح هابيل الطيبة التي لم يبقَ منها غير أنفاس ضعيفـة توشـك أن تتوقف إلى الأبد.

مـرت أشهر وسنوات ووجـه الشمس حزين كئيـب لا يظهر يومًا إلا ليختفي أيامًـا طويلة تحت غيوم من الدخـان المتصاعد، والقمر يبدو دامـع العين خافت النور وكأنـه يحتضر، ولـم تعد الأرض تسمع زقزقة العصافيـر ولا حركـة الحيوانات، قضت الحرب علـى كل شيء جميل، حتـى الإنســان يسير في الطرقـات ذاهل العقل، شـارد الفكر، محطم القوى كأنه بقايا هيكل عظمي يوشك أن يتهاوى بين لحظة وأخرى.

لـم تطـق الأرض صبرًا وهي تـرى العذاب المهيـن يلحق بها وبمن عليهـا، فتوجهت إلى السماء باكيـة بين يدي الرحمن.. داعية خالق كل شـيء أن يريحها من عذابها، واستغرقـت في دعائها طويلاً لا تفتر لها عزيمة، ولا يسكت لها صوت.

ذات يوم عصيب لـم تشرق فيه الشمس، دوت صرخة اهتزت لها الجبال، وزلزلت لها الأرض، فإذا بنو البشر يسقطون صرعى من هول ما سمعوه، وما هي إلا دقائق قليلة حتى سكن كل شيء واختفى الإنسان من سطح الأرض فلم يعد له وجود، ثم أبرقت السماء وأرعدت وسقط المطر غزيرًا يغسل كل شيء، وظهر وجه السماء بزرقته الهادئة، ولاحت أشعة الشمس تدفئ الأرض بعد طول برد وخوف، وتعانقت الاثنتان وهما مسرورتان باللقاء، وقد انقشع ظلام الليل الطويل، وخرجت الطيور من أوكارها تملأ زقزقتها الآفاق وتبعتها الحيوانات الأخرى تسابقها في مرح، وفي لمح البصر اختفت كل الآلام والمآسي وعادت الأرض عذراء كما كانت لا تطؤها قدم بشر، فإذا هي قطعة من الفردوس في جمال مروجها وزهورها وغاباتها، وعاد الأمن يحوم في كل مكان ناشرًا بأجنحته البيضاء ألوانًا من السعادة والهناء.

وابتسمت الأرض ابتسامتها الساحرة، وقالت للشمس وهي تغتسل بمياه الأنهار الدافئة:

«الحمد لله على كل هذه النعم، ولننس ذلك المخلوق الذي سبب لنا الكثير من العذاب.. ما أغنانا عن عقله ومخترعاته، وهو يدمر بنفسه ما يبنيه... إنه ليس أهلاً للبقاء..»..

وأطرقت تفكر، ثم أضافت:

- «ما وجد سلام منذ وجد الإنسان!!»..



متاع الغرور

على أرض منبطحة مترامية الأطراف لا يرى الناظر إليها على امتداد بصره جبلاً أو هضبة أو ارتفاعًا أو انخفاضًا، ولا يلمح على سطحها الذي لا نهايــة له شجرة أو حجرة أو بناية، اجتمع خلق كثير يعدون بالآلاف، لا يظهر منهم لفرط كثرتهم وتزاحمهم غير رؤوس متراصة لرجال ونساء، لا تقتــرب منهم حتى تــدرك من العرق المتصبب علــى وجوههم والتعب البادي عليهم، وما تقرؤه فــي أعينهم من خوف ممزوج بالقلق والحيرة، أنهــم ينتظرون شيئاً ما، ويترقبون أمرًا هو من الأهمية، بحيث قد يجلب لهم السعادة الخالدة، وقد يدفعهم إلى الشقاء الأبدي.

كان الجميــع جلوسًــا فــي اكتظــاظ لم يعــرف له مثيــل، مطأطئي الرؤوســ لا يأبه أحــد بأمر أحد آخر، ولا ينتبــه الجليس إلى من حوله، إنما الأذهان شاردة والعقول غارقة في تفكير عميق، والقلوب منصرفة إلــى ذلك الحــدث المنتظر، والنفوس بين إقبــال وإدبار، وفرح وحزن، وارتياح واضطراب، لما قد يأتي به هذا اليوم المرتقب.

وفجأة وقــف الجميع وقفة واحــدة، واشرأبت الأعنــاق، وشخصت الأبصــار حين لمع قبالــة ذلك المجلــس الضخم ضوء أشبــه بإشراق الشمســ في يوم جميل، لم يلبــث أن ازداد إشراقًا ليضيء المكان كله،

ظهـرت على إثره ملكة لم يُر لجمالها وحسنهـا مثيلٌ... تقدمت بخطى ملكيـة راقيـة، ترتدي أفخر الثيـاب، يجلل شعرها الذهبـي تاج مرصع باللآلـئ والأحجـار الكريمة، لم يعـرف أولئك الحضور وجـودًا لها في حياتهم المديدة.

كانت الملكة – دنيا – تبتسم ابتسامة ساحرة، وهي تقف في غرور وكبريـاء أمام ذلـك الجمع الغفير، وحول قدميها خـدم وحشم، وجوارٍ وغلمان يخدمونها ويتذللون لها؛ لترضى عنهم.

حـارت العقـول لمـرأى هـذا الجمـال الخـلاب، وفغرت الأفـواه أمـام هذا الحسن الأخاذ، وأيقنت تلك العيون الشاخصة إلى الملكة الحسناء أن هيـأت بيـن إشراقة الشمس وإطلالة نور القمـر من هذه التي أطلت عليهم بموكبها الفخم، فأذهلتهم عن كل أمر سواها.

انحنى الجمع الغفير للملكة إجلالاً وتعظيمًا، ولم يعتدلوا في وقفتهم حتى أومأت لهم بذلك، فوقفوا وقد بدا الطمع واضحًا في أعينهم، وسال اللعـاب من أفواههم، ينتظرون أن تغدق عليهم المنح والعطايا، وتحقق أحلامهـم بكرمها وسخاء يدها... كيف لا.. وهـي ملكة الدنيا.. بيدها الأمر والنهي، والعطاء والمنع!!...

جلسـت الملكة علـى كرسي عرشهـا تنظر بعينيـا السـاحرتين إلى شعبهـا الوفي وعبيدهـا المخلصين، وبعد صمت بـدا لأولئك الحضور دهرًا، رفعت سبابتها وأشارت إلى أحدهم، قائلة: «أنت!!..»..

عـرف المشار إليه أنها تعنيه، فأقبل مهرولاً يتعثر في مشيته لشدة فرحته أنه أول المدعوين للوقوف بين يدي ملكة الدنيا، وما إن مثل بين

يديهـا حتى سجد تحـت قدميها يقبلهما ويبللهما بدمـوع الفرحة التي ملكـت عليه نفسه، ففاضت لها عينه... ولم ينهض إلا والخدم يرفعونه عن قدمي الملكة فوقف وقفة العبد أمام ولي نعمته... نظرت إليه نظرة استعلاء، ثم قالت:

«أنت عاشق حسني وجمالي، وأسير سحري ودلالي، قضيت عمرك تخدمني وتعمل على إرضائي، وهأنذا أكافئك على طول انتظارك وجميل وفائـك... سأجعلك من المقربين عنـدي والمؤثرين لدي، فأذيقك من لذاتـي ومتعـي ما يسحر لبـك ويذهل عقلـك... اذهب، فأنـت السعيد السعيد..».

فخرّ العبد ساجدًا يعيد الشكر، ويقبل الأقدام مرددًا:

«أنت آلهتنا ولن نكون لغيرك عبيداً!!..»..

ابتسمت ابتسامة ماكرة، وقالت:

«أقبل أيها السلطان!!..»..

فأقبـل فرحًا مستبشرًا، إذ دعته إليها، وبعد أن أدى واجب الطاعة والولاء قالت:

«أعـرف أنك تعشـق كرسي السلطـان، وتهفـو إلـى طريق المجد... سأمنحـه لك، فأنت الآن سلطان مجيد على أرض ليس لها حدود، افعل ما شئـت فشعبك لك عبيـد... اذهب فعرشك لن يـزول وسلطانك لن يبيد..».

فخرّ السلطان ساجدًا يعيد الشكر ويقبل الأقدام، ويردد:

«أنت آلهتنا ولن نكون لغيرك عبيداً!!..»..

جالت – دنيا – بعينيها في الواقفين، وأومأت إلى أحدهم أن أنت...!! فأقبل مسرع الخطا، جثا أمامها يتمسح بثيابها يتبرك بها، فدفعته عنها، وقالت:

«أنت عاشق درهمي وديناري، وأنت المغرم بالولد، سأمنحك من المال ما يملأ عينك ويرفع مقامك وأرزقك من الولد ما يروي غرورك ويقوي سؤددك... فاذهب أنت السعيد السعيد..»..

فخرّ العبد ساجدًا يعيد الشكر، ويقبل الأقدام ويردد:

«أنت آلهتنا ولن نكون لغيرك عبيداً!!..»..

بحثت عن الرابع بين الجلوس هو أم بين الوقوف، فإذا هو واقف يترقب، وما إن وجهت له سهام عينيها حتى أقبل يتغنى بالملكة ويشيد بجمالها وكرمها، قالت:

«ألست تحب أن يذيع صيتك ويخلد اسمك ويصبح ذكرك على كل لسان؟... سأعطيك ما تريد وأحقق لك ما تحب، إن ذكرك الآن قد تعدى الحدود لا تقف أمام شهرتك الحواجز ولا السدود...، اذهب فأنت السعيد السعيد..».

فخرّ العبد ساجدًا يعيد الشكر ويقبل الأقدام وهو يردد:

«أنت آلهتنا ولن نكون لغيرك عبيداً!!..»..

وقفت الملكة وفي وقفتها إيذان بانتهاء اليوم الموعود، وحيَّت شعبها تحية الحب الودود، وقالت:

«يـا عبادي المخلصين، يا شعبي السعيد... إن الحياة أيام معدودة وتنقضي، فاجعلوها كلها أفراحًا وأعيادًا، لا تتبعوا عقولكم، ولا تستمعوا لأصـوات ضمائركم، واتبعوا ما تشتهي أنفسكم، وتلذّ في أعينكم، فمن مـات على لذة مات شهيدًا!!... انتشروا فـي الأرض، واستمتعوا بما هو عليها، فإنني أعطيتكم ما وعدتكم، وسأظل أعطي ما دمتم لي أوفياء... إنه وعد ولست أخلف وعودي... هيا انصرفوا...!!».

وهمّـوا بالانصراف حيـن دوّى في الأسماع صوت تـردد صداه في الآفاق:

«أيهـا المغفلـون!!... كيـف انخدعتـم بـكلام الملكـة المعسـول وعطاياهـا الزائلـة؟!... كيـف رضيتم العيشـ من أجل اللـذة والمتعة والسعي لتحقيق أحلام دنيوية واهية ومهمتكم في الحياة أعظم وأجلّ؟ إنكـم لستم حيوانـات، بل بشر، كرمكـم الله بالعقـل، واستخلفكم في الأرضـ؛ لتعمروها بالأخلاق الفاضلة والمبادئ السامية، ولتبنوها على أسسـ متينـة وقواعد راسخة؛ ليرتفـع البنيان جيلاً بعـد جيل... إنكم وجدتم للبناء لا الهدم، والإصلاح لا الإفساد و – دنيا – تدعوكم لنقيض مـا خلقتم له وفيـه هلاككم في دنياكم وأخراكـم... فأفيقوا قبل فوات الأوان، فتشقوا شقاء أبديًّا..»..

ارتفعت صرخات الاستنكار لهذا الكلام الذي غضب له جمع غفير، ولـم يدرك فحواه إلا فئـة قليلة منهم، لم ينخدعـوا بوعود الملكة، ولم

يغتــروا بمــا دعتهم إليــه، وخرجوا عن ذلــك الجمع وســاروا في طريق آخــر أكثــر وضوحًا يتصرفون بمــا يرضي عقولهــم وضمائرهم ويوافق فطرتهــم، ويمنحهــم اطمئنان قلوبهــم وسكينة نفوسهــم، يسهمون في إكمال البناء الشامخ الذي تداول أجدادهم الحكماء على وضع لمساتهم عليه، ويخلــدون رحيلهم بما تركوه من صالــح أعمالهم وجميل أقوالهم وكريــم أخلاقهم، وإنهم لماضون فيه غير نادمين أو ناقمين، فهنئوا في دنياهم، وسعدوا في أخراهم، في حين سارت جماهير عظيمة في طريق اللهو يبحثون عن المتع، ويستمتعون باللذات، ويصرفون أيامهم ولياليهم فيما يجلب لهم السعادة، ويشعرهم بالرضى والسرور على حياتهم.

ومرت سنوات تتبعها السنوات، وإذا بضيف ثقيل يحلّ بالديار يزرع الخــوف والرعب فــي النفوس، وإذا بما بين الأيــدي من مال وولد وجاه وسلطان وشهرة وخلود، ومــا تذوقته القلوب من متع وأفراح... إذا بكل شــيء يبدو سرابًا أمــام هذا الضيف الذي جاء فجــأة؛ ليقض مضاجع ويهدم اللذات ويفرق الجماعات... إنه الموت...

بالساحــة الكبيرة نفسها اجتمع خلق كثيــر يدعون ملكتهم للوقوف عند حاجتهم، ظهرت بنفس السحر والجمال، وسألتهم من فوق كرسي عرشها الفخم:

«ما بكم تبكون وتتصايحون؟... ما حاجتكم؟!!..»..

فصرخت تلك الحناجر صرخات الندم والحسرة:

«أغيثينــا أيتهــا الملكــة العظيمة... لقــد عملنا بقولــك وسرنا في طريقــك نتذوق متعك ونستمتع بلذائد العيشــ على أرضك، ولم نستفق

إلا بعد أن ولى الشباب وغزتنا الشيخوخة بضعفها وآلامها، وإذا الموت يطلبنـا، وحفرة القبـر تنادينا، ونظرنا حولنا هـل أعددنا العدة لرحلة الآخرة وهيأنا الزاد لمـا بعد الموت؟!... فإذا الحقيقة المرة تصفعنا: لا شيء بين أيدينا غير عمر ولى كأن لم يكن، وذنوب يخيفنا وزنها حين نقف بين يدي الخالق الجبار... أنجدينا يا ملكتنا، ألم تعدينا بعطاياك التي لا تنفد؟!!... فأين وعودك، وأين عهودك؟!..»..

قهقهت الملكة «دنيا» بأعلى صوتها، ثم قالت وهي تتضاحك بخبث:

«يـا لكم من أبله وبليد!!... ألم تعرفوني بعد؟!... إنني «الدنيا» أعد ولا أفي!!... إنني «متاع الغرور» وعدتكم وما أعد إلا غرورًا، ومغفل منكم مـن صَدّق وعدي وسار في دربي... انصرفـوا فحاجتكم ليست عندي، واسألوا من أنا وأنتم من خلقه وتحت رحمته».

وانصرفت الملكة عن هؤلاء وتركتهم يحصدون الندم ويبكون بدل الدمـوع دمًا، وتوجهت إلى الشباب تعدهـم وتمنيهم، تعطي لهذا المال والولد، وتمنح الآخر السلطان والمجد، وتهدي الثالث الشهرة والخلود، وتغـرق أثيرها فـي متعها ولذاتهـا... سارت وحولها الخـدم والجواري يخدمونها والشباب وراءها هائمون بها، يتبعون خطواتها، ويرددون:

«أنت آلهتنا ولن نكون لغيرك عبيداً!!..»..

العذاب العذب

لن تنسى أبدًا اليوم الذي رأته فيه... كانت واقفة كعادتها تنتظر الحافلة التي تنقلها إلى الجامعة حيث تدرس، حين وقع بصرها عليه، كان يبدو مستعجلاً وينتظر أيضًا حافلة أو سيارة أجرة تنقله إلى مقر عمله. جذبها إليه سماحة محياه وإشراقة وجهه، وأعجبها منه وقفته المستقيمة التي أوحت لها اعتداده بنفسه، وخطواته الثابتة التي أشعرتها بقوة شخصيته.

وجاءت سيارة أجرة فمضى فيها، وجاءت من بعدها حافلة فركبتها ومضت لشأنها، وشغلتها دراستها عن كل شيء، حتى عن ذلك الوجه الوسيم.

مرت أسابيع، بينما هي واقفة وقفتها تلك تنتظر الحافلة، إذ وقعت عيناها عليه مرة أخرى، فعجبت لتلك الإشراقة الوضيئة التي لم تغادر وجهه، والسماحة التي لم تفارق محياه، وراقبته من طرف خفي، فإذا وقفته المستقيمة وخطواته الثابتة وقعتا من نفسها موقعًا حسنًا، ومضى كل منهما لشأنه كالمرة السابقة، وإذا هي تنسى في زحمة دراستها وامتحاناتها كل شيء.

وتمضي الأسابيع والأشهر تراه فيها أحيانًا قليلة، وكثيرًا ما كانت تعجب به وترتاح لرؤيته، وتتساءل بينها وبين نفسها: من يكون؟! فإذا

ركبت الحافلة ودخلت الجامعة لم يعلق بذاكرتها شيء عنه، حتى تراه مرة أخرى، وهكذا دواليك.

ودون أن تشعر كانت لا تركب الحافلة العائدة إلى قريتها نهاية كل أسبوع حتى تبدأ عيناها في البحث عنه، فإذا لم تجده بين الجالسين تعلق بصرها بباب الحافلة؛ علّها تحظى برؤيته... كم مرة عادت إلى بيتها والألم يعتصر قلبها، وحزن دفين يملأ نفسها؛ لأنها لم تلقَه في طريقها، وكم هي نادرة تلك اللحظات التي رأته فيها فتعود إلى البيت، وهي لا تسير على الأرض بقدميها بل تحلق في السماء بأجنحة السعادة التي لم تعرف لها مثل هذا الطعم قبل الآن.

ووقفت مع نفسها وقفة صريحة، وسألتها عما غيَّر أحوالها وبدل أمورها، فإذا بها تعلن أنها تحب!!... إنها أول مرة تنجذب فيها إلى شخص من الجنس الآخر، وتعجب به ليتحول ذلك الإعجاب إلى حب عميق يغير حياتها، ويستولي على كل مشاعرها. غاب ذلك الشاب عن ناظرها ولم تعد تراه، وبقي طيفه محفورًا في ذاكرتها يلح في البقاء بين عينيها لا يغيب قيد أنملة، ولم يكن هذا بإرادتها، وإنما بفعل قوة خفية هزمت قوتها وجعلته يتربع على عرش قلبها الذي لم يحرك أوتاره أحد من قبل. ولم تستطع الدروس الكثيرة والامتحانات المتعاقبة والجلوس إلى الأهل والأصدقاء ولا أي شيء آخر إبعاد ذلك الطيف عن خيالها، بل كانت الأيام تزيده إلحاحًا في الظهور، فلم يكن يأتي ذكره إلا يضطرب قلبها اضطرابًا عنيفًا، وتشعر بالحرارة تسري في كامل جسدها لتصعد بعدها إلى وجهها فتشتعل وجنتها احمرارًا كأنه ماثل أمامها يحادثها. وبقدر ما كانت سعادتها عظيمة بكل هذا الجديد الذي

طرأ على حياتها آلمها غيابه عن عينيها، بل إن آلامها لتعظم في نفسها حتى أصابها أرق فظيع عذّبها ليالي طويلة، وأوشك هذا الأرق أن يتحول إلى مرض جسدي لولا أن تداركتها يد الرحمن بالعناية. وكثيرًا ما كانت تجلس إلى دروسها أو مع صديقاتها أو بين أفراد عائلتها تقاسمهم الحديث، فإذا هي شاردة الذهن، بعيدة عنهم، راحلة إليه عبر بحور خيالها، ودون وعي منها تجد نفسها تفكر فيه، وتستعرض في ذاكرتها كل ما يعنيه، عن اللباس الذي يرتديه، عن سكناته وقسمات وجهه، عن أصدقائه ومكان عمله... وإذا هي تحب كل هذه الأشياء وتعشق كل ما له صلة به. وأيقنت أنها دخلت دنيا العاشقين، ولمست بنفسها ما يكابده هؤلاء من عذاب، لكنه عذاب عذبٌ، تمتزج فيه السعادة بالشقاء، والفرح بالحزن، والرضى بالحرمان، ويعطي للحياة لونًا مترددًا بين السواد والبياض، وطعمًا متأرجحًا بين المرارة والحلاوة.

مرت أشهر، وهي تكابد هذه الآلام في نفسها دون أن تجرؤ على إخبار أحد بأمرها، فمثل هذه المشاعر بالنسبة لها أمر مقدس ونبيل لا يمكنها الإفضاء بها إلى أحد. وهنا وجدت نفسها تتساءل عن مشاعره هو نحوها: هل لفتت أنظاره في شيء؟. هل يكنّ لها من الحب ما تكنّه له؟!.. أم أنه لا يعلم حتى بوجودها ولا يعيرها أدنى اهتمام؟... وتذكرت قول شوقي:

موقعي عندك لا أعلمه آه لو تعلم عندي موقعك، وتحركت في نفسها كرامة المرأة، وأصبحت تحزن عندما لا تراه.. وتحزن إذا رأته، فإذا لم تره حزنت لبعده عنها وحاجتها إليه ورغبتها في رؤيته ولو نظرة خاطفة، فإذا رأته حزنت أيضًا؛ لأنه قريب منها بعيد عنها!!،

تـراه فلا تستطيع أن تفعل شيئًا لوصالـه، وتتمنى لو يتحرك هو بخطوة نحوهـا؛ لتضـع قلبها بين يديه فلا يبـدي حراكاً ولا يظهـر عليه إلا ما يؤكد لها أنه ناءٍ عنها بجسده وفكره وروحه جميعًا، وتجاهد بكل قوتها؛ لتثـأر لكرامتها، وتبذل كل شيء لتستعيد حياتها التي كانت تحياها قبل أن تـراه، فلا يزيدها جهادهـا وبذلها إلا عذابًا وألمًـا دون أن تفلح في الوصول إلى مبتغاها.

وتتخـرج فـي العـام نفسه في الجامعـة، وتستقر فـي بلدتها لتجد عملاً بها، ويعـود هو إلى بلدته مدرسًا في مدارسها، فتسعد بذلك أيما سعـادة، وتتفتح نفسها على آمال جديدة وأحـلام سعيدة تجمعهما أبد الدهـر تحت رباط الزوجية المقدس، فإذا بها ترى نفسها معه في بيت واحـد يتقاسمـان حلو الحيـاة ومرها، وتمتـزج حياتهمـا لتصبح حياة واحدة لا انفصال لإحداهما عن الأخرى مثلما لا استغناء لأحدهما عن الآخـر. وتجمع بينهما الأقدار في طريق واحدة، فترفع بصرها إليه في استحيـاء؛ علـه ينظر إليها فـلا يرفع بصره نحوهـا، ويكمل سيره غير منتبهٍ لوجودها، فتشعـر كأن سكينًا مسمومة غرست في قلبها، فأدمته وتتحجـر الدموع فـي مقلتيها ولا تلمح على صفحـة وجهها إلا اصفرارًا وهدوءًا أشبه باصفرار وهدوء وجوه الموتى.

إنها فتاة مثقفة وذات شهادة عالية، ويشهد الكل بأدبها وحسن أخلاقها، وهي ليست من الدمامة، بحيث ينفر منها الرجال، ولكنها متوسطة الجمال، فمـا الذي يمنع هذا الشخص مـن التقدم لخطبتها واتخاذها زوجة له؟... أيعتقدهـا ليسـت أهلاً له أم يرى نفسه دونها بكثيـر؟!... ثم لماذا وقع من نفسها ذلك الموقع، ولم تقع من نفسه أي موقع؟!..

كـم ساءلـت نفسها هذه الأسئلـة دون أن تجد جوابًـا يشفي حرقة قلبهـا، وبرغم أن صوت نفسها يجيبها بالصراحة التي عهدتها منه: «إنــه لا يحبك!!..». إلا أن حبها له يصمُّ أذنيها عن هذا الجواب القاتل؛ لتمنــي نفسهـا بالأحلام والآمــال وتنتظر في صبر اليــوم الذي سيقبل نحوها طالبًا يدها للزواج، وإنها – من فرط حبها – لتراه قريبًا.

وتمر أربع سنوات لم يتغير من حالها شيء سوى أن تقدم لخطبتها العديـد من شبـاب البلدة، ورفضتهـم في لين ورفق، فـكل جارحة من جوارحها تعيش مع ذلك الشاب الذي لم يرضَ قلبها بديلاً عنه.

لكـم تمنت أن يختارها بنفسه مثلما اختارته بنفسها وتدخل حياته مثلمـا دخل حياتها، وكم رغبـت أن يسعى إليها، فإن أبسط شيء تطلبه المرأة أن يسعى الرجل طالبًا وصالها، حالمًا ببناء عش الزوجية معها. لقـد منعهـا حياؤها أن تفعل شيئًا يكشف عواطفهـا تجاهه؛ لأنها كانت تفضل أن تنجذب روحه نحوها مثلما انجذبت روحها نحوه دون أن يكون لها أو لغيرها يد في ذلك.

ولم يساعدها على الصبر طيلة هذه السنوات سوى توكلها على اللّٰه فيمـا ابتلاها به، ولجوئها إليه في كل حين... لقد كان الدعاء سلاحها مع الصبر، لم تضعف أو تيأس فثقتها بقدرة اللّٰه ورحمته وعدله متمكنة من نفسها تمكـن الإيمان نفسه من قلبها. وكانت مشاعرها نحوه تتغير تغيـر أحوالهـا النفسية، فإن كانت فـي أحسن حال ورأتـه فرحت فرح الأطفـال وتمنت لو كانت برفقتـه، وإذا رأته وقد تذكرت قسوته وجفاءه غضبـت منــه وودّت لو يثور بـركان غضبها في وجهه؛ علـه يصحو من

غفوتـه وينتبه لوجودها، ثـم إذا رأته مرة أخرى وقد هدأت ثورة نفسها وانطفأ لهيب غضبها أتبعته بنظرات باردة، وهي تشعر ببرودة عواطفها نحوه برود تلك النظرات، فقد لا يستحق منها كل هذا الحب، وربما ليس أهلاً لأن تتعذب بسببه كل ذلك العذاب..

وتزورهــا إحــدى صديقاتها ذات يوم؛ لتخبرها مــن خلال حديثها عــن خطبة فلان لفتاة مــن المدينة المجاورة، فوقــع الخبر عليها وقعًا كاد يظهــر أثــره على وجهها لولا مــا بذلته من جهد لإخفــاء إحساسها المرير بالألم وابتلاع دموعها التي أوشكت أن تفضحها. وما إن غادرت صديقتها المكتب حتى نهضت من مكانها، وتوجهت إلى النافذة ورفعت بصرها إلى السماء... وفي لحظات قصيرة عبر ذهنها شريط ذكرياتها معه منذ أول يوم دخل فيه حياتها، وانطلقت تحدث نفسها:

«مــا أغبانــي، حين اعتقــدت أن روحه ستنجذب نحــو روحي مثلما انجذبت روحي نحوه!.. يا لسذاجتي حين أوهمت نفسي أن مشاعر الود إن بلغت درجة من الصدق والعمق فإنها ستقابل حتمًا بمشاعر مثلها إن لــم تقابل بمشاعر أشد منها عمقًا وأكثر صدقًا!.. كيف صدقت أوهامًا مــن صنع نفسي وانتظرت خلال سنوات تحقيق أحلام واهية لم تتجاوز يومًــا حــدود ذاتي؟!... هل يمكــن للإنسان أن تخدعــه مشاعره لهذه الدرجـة وأن تكذب عليه نفسه إلى هذا الحد؟!..»..

وأحست بالدموع تهبــط ساخنة على خديها، فأسرعت بالعودة إلى بيتهــا، وأغلقت على نفسها باب غرفتهــا، وبكت كما لم تبكِ في حياتها بصوت مكتوم وعبرات مختنقة.

الوطن الخالد

على الرغم من أن الشيخ إبراهيم يبدو إنسانًا مريضًا عاجزًا ناء كاهله بالسنين التي عاشها على وجه هذه الأرض، إلا أن صدره يخفي قلبًا ينبض بالحياة وكأنه ابن العشرين ويحمل في رأسه عقلاً يشع بنور يريه ما لا يراه الآخرون وذاكرة تختزن في أعماقها كنوزًا هي كل زاده فيما تبقى له من حياة، وعلى ذكراها تعيش نفسه وتقتات.

وإذا كان أبناء الشيخ إبراهيم يحرصون على الاجتماع بوالدهم في المناسبات والأعياد، فقد كانوا أحرص على ذلك في يوم محدد من العام يعلمون أنه أحب الأيام إلى أبيهم وذكراه أعظم أثرًا في نفسه من أي شيء آخر مرّ عليه في حياته المديدة.

خرجت الشمس من مخبئها وأرسلت أشعتها الذهبية معلنة عن ميلاد يوم جديد هو الخامس من شهر حزيران، وما هي إلا ساعات قلائل حتى دبت الحركة في بيت الشيخ إبراهيم وكأنه يوم عيد، بل هو يوم عيد للعائلة كما هو عيد للوطن بأسره. وبعد تناول طعام الغداء جلس الجميع في غرفة فسيحة ينتظرون قدوم الأب الذي أقبل متباطئًا، وهو يرتدي زي المجاهدين الذي لازمه سبع سنوات كاملة كانت من أقسى سنوات عمره الطويلة، ويحمل بين يديه المرتعشتين علَمَ الجزائر الذي

لم تداعبه رياح الحرية إلا في مثل هذا اليوم منذ أزيد من ثلاثين سنة خلت.

توسط الشيخ إبراهيم مجلس أبنائه، والجميع يحدق في النور الذي أشرق له وجهه والابتسامة التي كست محياه فزادته هيبة وجلالاً، وأطرق لحظات ثم رفع بصره فإذا بالدموع تتلألأ في عينيه ثم تهبط على خديه فتبلل العلم الذي يحتضنه بين يديه. عمّ الغرفة صمت رهيب لم يقطعه غير الشيخ بصوته الأجش يقول:

«تدركون يا أبنائي، مكانة هذا اليوم في قلبي وحرصي على اجتماعنا في هذه الغرفة منذ سنوات... كل ما حولنا يبدو كما هو إلا شيئًا واحدًا، أنني أصبحت شيخًا هرمًا أخذت نواكب الدهر نصف صحتي والتهم المرض النصف الآخر، في حين أصبحتم شبابًا يافعين تستقبلون الحياة بنهم وشوق، ولا أعتقد أنكم نسيتم ما كنا نتحدث عنه خلال تلك الجلسات..»..

«لا يا أبي، ما نسينا شيئًا مما حدثتنا عنه... عن معاناتكم في أثناء وجود الاحتلال الفرنسي وما قاسيتموه من ظلم واستعباد، وعما جرى خلال ثورة الفاتح نوفمبر، بل إننا – من كثرة ما سمعناه عن هذه الثورة – نشعر كأننا حملنا السلاح معكم لاسترجاع حرية وطننا العزيز».

أشرق وجه الوالد بابتسامة رضى، ثم قال:

«كان من واجبي، وقد ذقت طعم الذل والهوان وشربت من كأس الظلم والطغيان أن أشعركم بما كنا نلاقيه؛ لتدركوا أن اغتصاب أرض بأسرها واستعباد شعب بأكمله ظلم لا نظير له، وأن الظلم ظلمات

حالكـة لا يعقبها فجر إلا بثورة على الظالم المستبد واستئصال وجوده من جذوره».

عقّب «علي» المعلم، قائلاً:

«تأكد يا والدي، أننا نقدر ما تألمتم له، فما رويته ونحن صغار رسخ في أذهاننا ونحن كبار».

أكمل الشيخ إبراهيم حديثه:

«إن الليـل مهمـا طال أمده لا بـد أن يعقبـه الفجر، والغيـوم القاتمة السـوداء إن تكاثفت وحجبت نـور الشمس لا بد أن تختفـي ليظهر إشراق الشمس واضحًا يرسل الدفء والضياء... كذلك الظلم هو كالليل وكالسحب السـوداء كان لا بـد لـه من نهاية ولـو بعد مئة عـام!!... ثرنـا على الظلم المستبـد، بعنا حياتنا وأهالينا وديارنا لشراء شيء واحد اسمه «الحرية»، فالحياة بدون حرية أقسى أنواع الموت. وكانت ثورة سبع السنوات والمليون ونصف المليون شهيد، ضريبة ضخمة لكلمة قليلة الحروف عظيمة المعنى الطريق إليها دموع ودماء، جثث وأشلاء، آهات وأنات..».

صمت الشيخ وقد عـاد بذاكرته إلى سنين الألم والمعاناة، ثم نظر إلى العلم الوطني نظرة عامرة بالحب وابتسم، قائلاً:

«كان يومًا رائعًا، بل كان من أسعد أيام حياتي، أشرقت فيه الشمس فكأننـا نرى إشراقهـا لأول مرة وغـردت العصافير، فكأننـا لم نسمع تغريدها إلا في ذلك اليوم البهيج، وخرجت كل بهيمة من مخبئها تعدو سعيدة، وقد صفا لها وجه السماء بعد طول إظلام، وعمّ الطبيعة هدوء

جميل لم ترَ له مثيلاً منذ أمد بعيد. أما نحن فقد خرجنا كالمجانين لا نصدق – وآثار الدموع لا تزال في مآقينا وبقع الدم تلطخ ثيابنا – أن فجر الحرية أشرق من جديد، وأن هذا العلم سيرفرف في سمائنا إلى الأبد... كانت فرحتنا يومها أعظم من أن توصف وأعمق من أن يعبر عنها بالكلمات».

لمعت عينا الشيخ إبراهيم ببريق الفرحة، ثم واصل قائلاً:

«ما أسعدنا ذلك اليوم! وقد ملأنا الشوارع والأزقة، صغارًا وكبارًا، رجالاً ونساء، نهتف بصوت واحد:

«تحيا الجزائر.. تحيا الجزائر..!!».

ووقف الشيخ في تلك الغرفة الفسيحة يلوح بالعلم الجزائري صارخًا ملء فيه:

«تحيا الجزائر.. تحيا الجزائر..!!»، واختنق صوته بالدموع، فجلس يبكي بكاء طفل صغير.

إن إبراهيم الذي قام من مجلسه ينادي بحياة الجزائر بتلك الحماسة ليس إبراهيم الشيخ العاجز المريض، بل الشاب القوي الذي جاهد في ثورة التحرير وشهد يوم الاستقلال العظيم. هو لم يعد إلى ذلك اليوم بذاكرته فحسب بل بجسده أيضًا، لقد قهر العجز والمرض وعاد إلى الوراء بأزيد من ثلاثين عامًا!!...

مرت دقائق معدودة كان فيها الوالد غائبًا بأحاسيسه، أما الأبناء فقد أدركوا أن الخامس من شهر (حزيران) يوم عيد بحق، أليس هو اليوم

الذي ولّى فيه ليل الاحتلال وأشرقت شمس الحرية والاستقلال؟! أليس هو اليوم الذي تحررت فيه الأجساد والألسنة والأقلام من قيود العبودية التي قتلت كل جسد وأخرست كل لسان وخنقت كل قلم؟ أليس – بعد كل هذا – هو اليوم الذي عادت فيه الأرض لأصحابها والبيوت لسكانها، وعاد لكل ذي حق حقه وهو قرير العين، عزيز النفس، مطمئن الفؤاد؟...

عاد الشيخ الوالد من سياحته في ذلك الماضي البعيد إلى هذا الحاضر القريب وأخذ يتأمل وجوه أبنائه وتنفس الصعداء، ثم قال:

«لقد آليت على نفسي قبل ذلك اليوم ألا أتزوج امرأة ولا أسكن بيتًا أو أشتهي طعامًا ما لم أستعد عزة بلادي أو أموت دونها، وعندما أكرمنا اللّه بفضله ورزقنا النصر على العدو، قررت أن أتزوج وأنجب أطفالاً أربيهم على حب هذا الوطن والمحافظة عليه وأضع بين أيديهم الأمانة التي تداول أجدادي على حملها، وهأنذا أضع هذا الوطن أمانة بين أيديكم، حافظوا عليه حفاظكم على أنفسكم بل أشد حفظاً، وإن كنا نحن سعينا لتحريره فعليكم بالسعي لتطويره... لقد حرصت على تعليمكم، بنين وبنات وجعلت منكم الطبيب والمعلم والمهندس، لأني أوقن أن صرح الوطن لا يُبنى إلا بالعلم والعمل. والأمم المتقدمة ما سبقتنا في التقدم إلا بعلمها وعملها، ولتذكروا دائمًا أن هذه الأرض شربت من الدماء أكثر مما شربت من الماء، وأن هذه الحرية التي تنعمون بها أمانة في أعناقكم، إياكم أن تبخسوها حقها أو تستهينوا بقيمتها. ولا يموتن أحدكم إلا وقد أدى واجبه نحو وطنه بالقدر الذي يستطيعه، ولتربوا أبناءكم على ما ربيتكم عليه؛ حتى يكونوا أهلاً لحمل هذه الأمانة التي حملتكم إياها..».

وصمـت الشيخ إبراهيم؛ ليرى أثـر حديثه على ملامح أولاده، فإذا الـكل مستمـع إليه في انتباه وكأنهم يطالبونـه بالمزيد من هذا المعين الـذي لا ينضب، لكـن الشيخ استعـان بأحدهم، واستـأذن في الخروج وعاد بعد لحظات مرتديًا جبته وبرنوسه حاملاً في يده بِذّلته العسكرية وفوقهـا العلم الوطني وتوجه بهـا إلى أحمد، ووضعهـا بين يديه، وقال له:

«هـذه جزء مـن تاريخنا، فحافـظ عليها، فمن ذكـر ماضيه عاش حاضـره فـي ثقة، وبنـى مستقبله فـي عزم، ومـن تنكـر لماضيه كان كالشجـرة مـن دون جذور، فلا هـي تنمو وتكبر وتؤتـي ثمارها، ولا هي تزول، وإنما موته أنفع لوطنه من حياته».



تجربة في الإدارة

جلست في مكتبي المنعزل عن مبنى الإدارة حيث أعمل، الهدوء يعمّ المكان سوى أصوات أطفال يلعبون تصلني خافتة، نار الغضب لا تزال ملتهبة في داخلي، أشعر بكل شيء يغلي في أعماقي كبركان يوشك أن ينفجر بين لحظة وأخرى، لم يعد ذهني يستطيع التركيز في شيء، ولم أعد أقوى على التفكير إلا بهذا المشكل الذي طفا على السطح مرة أخرى، وقد اعتقدت أنه غاص في الأعماق لغير رجعة.. كانت الأفكار تتزاحم في مخيلتي حين دُقّ البابُ ودخل الحارس يبلغني أن المدير يريدني فورًا. كنت أنتظر استدعاءه لي بعد رفضي للمرة الثانية أداء عمل ليس من مهامي، ولا من اختصاصي..

لكم أعجب من الدنيا كيف حملتني بأحلامي التي لم تسعها الأرض، وأجلستني على كرسي خلف مكتب في إدارة!!..

أذكر أن أحد العلماء زار جامعتنا ذات يوم وألقى محاضرة قيّمة، وقد رسخت في ذهني جملة قالها، أصبحت أذكر معناها أكثر من أي وقت مضى، لقد قال: «العمل بالإدارة جهد وعمر ضائعَان!!..». كان لا بد لي أن أعاني معاناة أليمة؛ لترويض نفسي على قبول مثل هذا الجهد الضائع والرضوخ لهذه البطالة المقنعة..

كان الجلوس خلف مكتب، بين جدران أربعة محاطة بأوراق وملفات لا تحمـل بيـن طياتها عملاً ذا أهمية كبرى خلال يـوم كامل إلا بعضه، ولخمســة أيام متتالية مـن كل أسبوع أضحت لفرط ترددها يومًا واحدًا يتكـرر... كان كل هذا مملاً للغاية، أشعر به نارًا تلتهم عمري يومًا بعد آخر، وكان الإحساس بأنني «أَمَةٌ» لهذا العمل يكاد يقتلني، إذ كيف يعقل أن أقبـل بهذه الأغلال التي تطبق على أنفاسي، وتكاد تخنقني من أجل دراهم معدودة أرى أنني أبيع حياتي من أجلها!!...

إن أول شعـور راودنـي، وأنـا أجلسـ خلـف مكتب أننـي أحلت على التقاعد، وأنها أيام وأنزلق بدوري نحو القبر!!!...

وتذكـرت المدير... يـا له من رجل متعجـرف!!... إنه من هواة ذرّ المشـكلات في طريق موظفيه ومن عاشقي التسلط وحب الظهور، وهو من الذين يقضّ مضجعهم عقد «الأنا» التي تزداد وطأتها أمام خريجي المعاهـد والجامعـات. لا يمرّ يـوم إلا يصطنع فيه مشـكلاً جديدًا، ولا يتوقـف عن إثـارة موظفيه بشتـى السبل لإذلالهم، فيعقبـه ذلك شعور غامر بالنشوة والانتصار.

أنهضتنـي تلـك النـار المتأججة مـن مكاني على غيـر وعي مني، وبخطـوات ثابتة توجهـت إلى مكتـب المدير. كان يجلسـ خلف مكتبه العريضـ يتظاهر بقـراءة بعض ما تراكم حوله مـن الأوراق والدفاتر، رفع بصره إليّ وقال محاولاً تصنع الهدوء:

«أخبرك السكرتير أنني كلفتك بأداء عمل، أليس كذلك؟».

أجبته دون أن أنظر إليه:

«بلى».

«أخبرني أنك رفضت القيام به؟!..».

«نعم... هذا صحيح».

فسأل محاولاً تجاهل كل شيء:

«لماذا؟..».

«أخبرتك قبل اليوم أن هذا العمل ليس من مهامي، وأنني مسؤولة فقط عن عملي في مجال اختصاصي، أما عداه فلست مسؤولة عن شيء!!».

انتفض غاضبًا وصرخ:

«أنا هنا المسؤول، وأنا فقط من يحدد المسؤوليات، وليس أحد غيري، وعندما أصدر أمرًا يجب أن ينفذ، أفهمت؟!..».

أجبته بهدوء كاد يفقده صوابه:

«كلانا موظف مسؤول له حقوق، وعليه واجبات، ولسنا مطالبين بأكثر من أن نعمل على احترام حقوقنا وأداء واجباتنا، ومسؤوليتك في توزيع المهام هي في تحديدها حسب اختصاص كل موظف والعمل الذي عيّن من أجله، فالتقني له عمله المحدد، والإداري أيضًا والحدود بينهما واضحة المعالم، وهذا العمل بالذات إداريّ بحت، لا يمكن أن تكون لي يد فيه».

فقال بنبرة هادئة:

«ألا ترين أنك تعقدين الأمر، والعمل المطلوب منك لا يتطلب جهدًا كبيرًا».

نظـرت إليه لأرى علامات المكر والخبـث مرتسمة على وجهه، إنه يغضـب ويلين في آنٍ واحد من أجل الوصـول إلى هدفه دون عناء. قلت وأنا لا أزال على وقفتي:

«المشكلـة ليست في العمل، وأنت تعلم أنني أستطيع القيام به على أكمـل وجه، إنما المدة التـي قضيتها رفقتكم علمتنـي أن الإدارة عالم آخر يسوده الغموض والالتواء وانزلاقات خطيرة قد تؤدي إلى المهالك، ورأيـت كيف يضع معظـم الإداريين أقنعة على وجوههـم، ويستبدلونها كمـا يستبدلون ثيابهم حسب المصالـح والأهواء، وأنا لست من الذكاء بحيث أستطيع فهم ذلك الغموض والالتزام أو ألبس وجهي أقنعة تختلف باختلاف الوجوه التـي أقابلها... لذلك – وحتى أحمي نفسي – أكتفي بإنجـاز العمل الموكل إلي فـي مجال اختصاصي فقـط وأن أضع بيني وبينكم حاجزًا متينًا ولا أدري هل سأنجو بعد كل هذا أم لا؟!!..».

رمقني بنظرات ساخرة، وقال:

«أنحن بمثل هذه الفظاعة؟؟!..».

«إنه رأيي بكل صراحة».

«احتفظـي برأيـك لنفسـك، ولسـت بحاجـة لفلسفتـك... هكـذا الجامعيون يعتقدون أنهم أكثر فهمًا من غيرهم!!..».

«بل نستخدم عقولنا ونحافظ على شخصيتنا، وندافع عن مبادئنا، وهذا ما لا يعجبكم أبدًا..».

نفد صبره، فصرخ قائلاً:

«كفى ثرثرة... أنت مصرة على موقفك؟..».

«كل الإصرار».

«ألم تعتبري من الدرس السابق الذي لقنته لك؟... سأضيف إنذاراً آخر لملف عملك، وسأحيلك إلى المجلس التأديبي!!..».

قلت، وأنا ساكنة.. لا يرتد لي جفن:

«لا تعتقد أن سكوتي في المرة السابقة كان ضعفًا مني، بل كان دفعًا بالتي هي أحسن، وهذا ما جعلك تتجرأ عليّ مرة أخرى. لكن ثق هذه المرة أنني لن أسكت عن أي إجراء تتخذه ضدي، وبدلاً من أن ترسل لنا الوزارة تعليمات صارمة عن تحسين العلاقة بين الإدارة والمواطن، سأجعلها ترسل تعليمات أكثر صراحة عن إعادة النظر في العلاقة بين المسؤول والموظف!!..».

ثم أضفت، وقد زال هدوئي، وتغيرت نبرة صوتي:

«خرجنا من الجامعة بفرحة أننا سنصبح أخيراً بناة لهذا الوطن الذي أعطى لنا الكثير، وكنا ننتظر أن نجد الأيدي مفتوحة لاستقبالنا والطرق ممهدة أمامنا، فإذا البطالة تضرب بكفها القاسية على خدنا؛ لتوقظنا من أحلامنا الواهية. وعندما زال هذا الشبح وبدأنا العمل بنفَس جديد وإرادة قوية، كنا نأمل أن نجد القدوة أمامنا من رجال هذه الأمة ممن بنوا وأعطوا فنأخذ منهم، ونقتفي آثارهم، ونكمل ما بنوه، لكننا صدمنا مرة أخرى صدمة حطمت صرح آمالنا، وإذا بنا نكتشف

أن لا مكان للبناء في هذه البلاد، الكل يحمل معولاً للهدم يخرب الأنفس والعقول والأرواح... وأنت واحد من هؤلاء، ترفض خطاب العقل والتشاور، ولا تفهم غير خطاب القوة والتسلط... لكن ثق بأنك أصغر من أن تمارس علينا قهرًا، أو تفرض علينا أمرًا؛ لأننا شباب هذه الأمة وإطاراتها، حاضرها المشرق ومستقبلها المضيء ولا مكان لأمثالك في هذا الوطن الغالي الذي لن يوقفه من كبوته سوانا... جرب باتخاذ أي قرار ضدي، وسترى بنفسك ما أنا فاعلة».

واستدرت تاركة إياه فاغرًا فاه من الدهشة، فأتبعني بقوله، وأنا أتأهب للخروج:

«أصبحت تحسنين الكلام، وقد كنت من قبل لا تتفوهين بكلمة!!..».

فقلت ومقبض الباب في يدي: «أتذكر حين قلت لي ذات يوم ناصحًا: إذا أردت أن تعيشي في هذا الزمن فلا بد أن تضربي بكف من حديد... إن كان لا بد من ذلك لأعيش، فسأبدأ كفاحي من هنا!!!..».

خرجت من عنده وأنا أشعر بالنار الملتهبة في داخلي تنطفئ ويعقبها إحساس مريح بالاطمئنان. وانطلقت أهمس لنفسي:

«لو ذاق المرء حلاوة الانتصار، وقارنها بمرارة الانكسار وذل الاستسلام لما جبن أو خاف من مواجهة أي موقف».

لقد كان رفعي لهذا التحدي أول خطوة للانتصار.

دوامة!!

وقـف سعيد وسط المدينة فاغرًا فـاه من الدهشة وعيناه شاردتان كمن يبحث عن شيء أضاعه وسط الزحام الشديد، كان يسير على غير هـدى، ويسلك طرقًا ملتوية طويلـة دون أن يكون في ذهنه هدف محدد يسعى للوصول إليه. وعلى بعد عشرات الكيلو مترات كانت عائلته تبحث عنه منذ الصباح حين خرج ولم يعد.

جلست زوجتـه تبكي وحولهـا أطفالها الثلاثـة يشاركونها البكاء، بينمـا تعلق طفـل رابع بصدرها يمتصـ قطرات الحليـب المتبقية في ثديهـا، وقد أنهكه الجـوع بعد غياب أمه أغلب اليـوم؛ بحثًا عن أبيه... وارتفع نحيب المرأة، وهي تقول:

«أيـن أنت يا سعيد، ومـاذا حلّ بك؟... ليتك تطـل علينـا؛ لنراك سـالمًا معافى..».

فقالت إحدى قريباتها تهدئ من روعها:

«سيعـود، تيقنـي من ذلـك، ستنـزاح الغشاوة من عينيـه، ويعرف طريقه فيعود إلى بيته، ولو في منتصف الليل!!..».

لم تبالِ الزوجة بكلامها، وواصلت بكاءها بصوت مكتوم حين دخل أخو زوجها حزينًا منكسرًا:

«لم نعثر له على أثر... يبدو أنه ركب الحافلة، وذهب إلى المدينة... من المؤكد أن حالته عادت إليه، فنسي من يكون، وإلى أين يذهب!!..».

كان سعيد شابا تجاوز الثلاثين بقليل، فارع الطول، نحيل الجسم، أصبحت بشرته أقرب إلى السواد منها إلى السمرة منذ زواجه وإنجابه لأربعة أطفال، لم يسعد بقدومهم بقدر ما أجهده التفكير في إعالتهم، وراتبه الشهري لا يكاد يقبضه بيمناه حتى يصرفه بيسراه في أيام قليلة.

جلس في مكتبه الضيق محاطاً برزم الأوراق والدفاتر والمستندات، كان غارقاً وسطها لما دخل عليه المدير العام، وقال زاجرًا:

«لماذا تأخرت في إحضار الملف الذي حدثتك عنه؟».

«إنه بين يدي، سأكمله حالاً وأحضره لك..».

«والمواد التي طلبت منك إحضارها من شركة البناء، لماذا لم تتحرك حتى الآن، والشاحنة في الخارج تنتظرك منذ أكثر من ساعة؟!..».

فقال سعيد، والعرق يتصبب من جبينه:

«يا سيدي المدير، لقد استعجلتني في إحضار هذا الملف فكان يجب إنهاؤه قبل أن أذهب، فكيف تريدني أن أقوم بالعملين في الوقت نفسه؟».

فصرخ المدير في وجهه، قائلاً:

«لا يهمني إن كان يكفيك الوقت أم لا، المهم عندي أن تقوم بكل ما أكلفك به... اسمع يا سعيد، حياتك وحياة عائلتك متوقفة على عملك هذا، فإن كنت حريصًا على لقمة عيشك، فيجب أن تنفذ ما أطلبه منك... إنه إنذار فلا تغضبني منك، وإلا اتخذت ضدك إجراء ستندم عليه... هل سمعت؟!.».

وخرج المدير من عنده، وتركه في حالة من الغضب كادت تعصف به، وهو يتمتم:

«ماذا يظنني؟!.. آلة مبرمجة عليها القيام بكل شيء في وقت ضيق... يا إلهي، إن رأسي يكاد ينفجر من هذه المشكلات التي لا تنتهي..».

وما هي إلا بضع دقائق، حتى دخل عليه المدير الفرعي للورشة، ولم يلقِ السلام، بل استعجله غاضبًا:

«يبدو أنه يعجبك الجلوس خلف المكتب بدل الخروج إلى العمال والوقوف على احتياجاتهم، ألا تعلم أن الورشة متوقفة هذا الصباح بسبب تهاونك في تزويدها بمواد البناء اللازمة؟..».

«لقد انتهيت الآن فقط من إعداد هذا الملف للمدير العام، وسأذهب حالاً لإحضار المواد..».

نظر إليه المدير الفرعي نظرة ماكرة، وقال:

«من مصلحتك أن تكون سريعًا في تنفيذ الأوامر؛ لأرضى عنك، وإلا ما أسهل استبدال آخر بك... هل فهمت؟!!.».

دوى البــاب وراءه حين خرج، وجلس سعيــد على كرسيه ونبضات قلبــه تكاد تتوقف لفرط غضبه، وما هي سوى لحظات حتى خرج ليقوم بالأعمــال التي طلــب منه إنجازهــا، ناقمًا على اليوم الــذي أصبح فيه عبدًا لهذا العمل ورؤسائه.

في المساء عــاد سعيد إلى بيته قلقًا مضطربًا، لا يستطيع الحركة؛ لفــرط الإعيــاء، وبعد أن قدمــت له زوجتــه فنجانًا من القهــوة بادرته بالسؤال، قائلة:

«لقد نفد زاد البيت ولم يبقَ شيء، فهلا ذهبت إلى السوق وأحضرت هذه اللوازم؟».

سلمته ورقة فيها قائمة طويلة، أخذها وقرأها بصوت مرتفع:

«دقيق، زيت، سكر، قهوة... إلخ».

وتمتم بشفتين ترتجفان:

«مــن أيــن أحضــر كل هــذه الأشيــاء، ولــم يبقَ فــي جيبــي دينار واحد؟!..».

قالت زوجته مطرقة:

«لا سبيل لنا سوى الاستدانة كما نفعل آخر كل شهر».

فرد الزوج مكفهر الوجه:

«لا يأتــي مرتب الشهر، حتى ندفع نصفــه للديون، والنصف الآخر يذهــب للأطباء وثمنًا للأدويــة ولباس الأطفال وإيجــار البيت وفواتير

الماء والكهرباء، ثم لا يبقى في الجيب بعد أيام غير دنانير قليلة يضطرنا نفادها للاستدانة مرة أخرى.. وهكذا دواليك..».

وأخفى وجهه بين راحتيه، وهو يزمجر كأسد حبيس:

«ما هذه الدوامة التي ابتلعتني... كيف أخرج من ظلمتها الحالكة؟... متى أرى النور؟..».

اقتربت منه زوجته تلاطفه، وقد راعها تغير وجهه، ثم قالت:

«لسنا وحدنا من يعاني، إنما هي مشكلة أغلب الموظفين ذوي الدخل المحدود، وما عسى أن يفعله راتب موظف بسيط في زمن الغلاء الفاحش؟!... أبعد الهموم عنك، ولا تجعلها تستولي عليك فتنغص حياتك، يكفي ما تلاقيه من المشكلات في العمل..».

وأقبل عليه أطفاله الثلاثة، فأخذ يلعب معهم، ونظر إلى طفله الرضيع يرنو إليه بعينين بريئتين، فذهب إليه يقبله ويداعبه، فانزاح عن صدره كل همّ.

لم يتعدَّ سعيد العشرين من عمره إلا قليلا حين تم تعيينه في المؤسسة أمينًا للمخازن، يسهر على رقابة ما يدخل وما يخرج منها، ومع توالي السنين أصبح من حيث لا يدري يكلف بمهام كثيرة، ويعهد إليه السفر لأماكن بعيدة لجلب السلع ومواد البناء، كما أنه المسؤول الأول عن العمال، حيث يسهر على احترامهم لمواقيت العمل، ويوفر لهم ما يحتاجونه، ويطوف على مختلف مشروعات المؤسسة؛ ليقف عند حاجات كل مشروع، ووضعت تحت مسؤوليته المفاتيح المهمة للمكاتب

التـي لا يتوقف الطالب عليها ليلاً أو نهـارًا... كان سعيد يقوم بكل هذه الأعمال في صمت ظاهر مخفيًا داخله بركانًا خامدًا من الغضب يوشك أن يثور وينفجر.

كان كثيـر الصمـت بادي الخـوف، لا يمانع أو يدافـع عن حقه في ممارسـة أي عمـل، بـل كان عامـلاً بسيطاً يتفـادى المشـكلات ويغلق مـا استطاع أبـواب المواجهة مـع مسؤوليه مما جعلهم يتجـرؤون عليه ويحمّلونـه أثقـالاً على أثقاله، مهددين إياه فـي كل مرة أن يعمل كل ما وكِّل إليـه أو يكـون نصيبـه الطرد، ولم يكن الدافع وراء صمت سعيد وتحمله لهذه الأعباء مصحوبـة بكلمات التجريح اللاذعة سوى تفكيره المستمـر في عائلته، إذ من سيعولهم إن طرد من عمله في هذا الزمن الذي أصبح العمل فيه صعب المنال، لا يحصل عليه أصحاب الشهادات العالية، فما باله ولا شهادة بين يديه تدفع عنه غضب مسؤوليه؟!...

ازدادت أعبـاء سعيـد مع مرور الأيام، فأصبح كثيـر التفكير شارد الذهـن، سقـط شعر رأسـه لكثرة همومـه، وغارت عينـاه وكسا وجهه طبقـة نحاسية لامعة زادت من تجهمه، ونحل جسمه حتى أصبح هيكلاً عظميًا يتحرك بين الناس، وبدا – وهو لا يزال في الثلاثين – كأنه ابن الستين، لا يفرّقه عنهم غير شهادة الميلاد!!...

كان ذات يوم يلهث وراء العمل الكثير الذي ينتظره وفي ذهنه طلبات البيت التي لا تنتهي، وفجأة توقف وسط الطريق وبدا ذاهلاً عمن حوله والتفـت كمن يبحث عن شيء أضاعه، وبـدل أن يسلك الطريق المؤدي لمسكنـه قادته قدماه إلى مكان بعيد، حتى خـرج عن العمران. ومرّ به أحد الجيران، فاقترب منه، وسأله:

«إلى أين تمضي يا سعيد؟».

فنظر إليه بعينين زائغتين وفكر شارد، وقال:

«إلى بيتي... أريد العودة إلى بيتي!!..».

فرد الجار مندهشًا:

«وهل بيتك من هنا؟... لقد خرجت من البلدة كلها!!..».

لم يجب سعيد، فأمسكه الجار من ذراعه وساقه إلى بيته، وما إن وقعت عيناه على زوجته حتى صاح فيها، قائلاً:

«من أنت؟!!..».

وسقط مغشيًّا عليه، فحمل على جناح السرعة إلى المستشفى، حيث بقي ممددًا ساعات عديدة، ولم يفق إلا بعد حلول الظلام.

اجتمع حوله عدد كبير من الأهل والأصدقاء حين خرج من المستشفى، ولما سئل عما حدث له؟ قال حائرًا:

«لا أدري ما حلّ بي... لقد كنت عائدًا إلى البيت وفجأة شعرت بألم فظيع في مؤخرة رأسي، ثم نظرت حولي فنسيت إلى أين أذهب وأي الطرق أسلك... ووجدتني أمشي على غير هدى حتى حدث ما حكاه لكم جارنا. وعندما دخلت البيت لم أعرف زوجتي وأولادي، بل لو سألني أحد: من أكون؟ لما أجبته، لقد نسيت كل شيء!..».

منذ ذلك اليوم وسعيد يدخل في غيبوبة طويلة ثم يستفيق منها، ونقل إلى المستشفى أكثر من مرة، وأحضر له راقٍ يرقيه مرات

عديـــــدة، لكن شيئًا من هذا لم يغير مما ألمّ به ولم يخفِّف الآلام التي يشعر بها في مؤخـرة رأسه.

أرسـل إلى طبيب مختص في الأمراض العصبيــة، وبعد تحـاليل طويلـــة وفحوصـات مكثفة تبين أن مرضه ليس جسديًّا ولا شيء خطير في دماغه وأن مرضه الحقيقي... القلق!!...

ذات يــوم شعــر بضيق شديد، فأراد الخــروج؛ لأنه لم يغادر البيت منذ أيام طويلة، ولم تستطع زوجته منعه حين أوهمها أنه تماثل للشفاء، وأقنعهـا بضـرورة الخـروج لاستنشـاق الهـواء. كان الجـو بديعًا ذلك الصباح الباكـر، وقليل من البشر استيقظوا ليملـؤوا الأرض بثرثرتهم ووقع أقدامهم، قادته قدماه إلى إحدى الحدائق، فجلس وسط أشجارها يستمتع بمناظرها الخلابة ويفكر في قول الطبيب:

«يجب أن تبتعد نهائيًّا عن كل أسباب القلق؛ لتشفى... الحل الوحيد لمرضك أن تترك عملك، وتغير مسكنك، ولا ترى شيئًا يذكرك بحياتك السابقـة... لـم يستطع عقلـك تحمل الضغـوط الكثيرة التــي أجهدت نفسـك بتحملها يوميًّا... إن ما تعانيه اليوم نــوع من الانهيار العصبي، وأنــت محظــوظ؛ لأن دماغك لم يصب بشلل مفاجــئ، فتموت على إثر ذلك مباشرة..»..

ابتسم سعيد بسخرية، وهو يقول:

«أترك عملي وأغير مسكني وأبتعد عن كل ما من شأنه أن يقلقنـي!!... يــا لها من مطالب يسيــرة التحقيق!!... أترك عملــي لأخرج للتسول أنا وأطفالي، وأستبدل بمسكني الفضاء الواسع، حيث أفترش الأرض وألتحف

السمـــاء، وأبتعد عن مديريّ وأصحاب المحلات، وأهرب من دفع فواتير المــاء والكهرباء وإيجــار البيت، كما أغض الطرف عــن حاجيات البيت والأولاد، وأعيشــ وســط هذا الزحام مــن المشكلات بأعصــاب باردة، وأرسم على وجهي ابتسامة واسعة تعبر عن سعادتي بهذا الوجود!!».

نهضـ من مكانــه، ورأســه مزدحــم بأفكار متضاربــة لا تكاد تصل بــه إلى قــرار، ودون أن يدري وجد نفسه يركب حافلــة كانت تنتظر في المحطــة، وما هي إلى بضــع ساعة حتى كان وســط المدينة فاغرًا فاه من الدهشة!...

مضــى أكثر النهـــار، وسعيد يجـوب شـــوارع المدينة جيئة وذهابًا إلى أن وصل الشارع الكبير المزدحم بالسيــارات والحــافلات، وأسرع الخطوات يبغي العبور إلـــى الجهة الأخرى حين فـاجأتـه سيـارة أقبلت نحوه بسرعة رهيبة فألفى نفسه يطير في الهواء، ثم يسقط علـى الأرض مغشيـًّا عليــه والدم ينزف من كل موضع من جسده النحيل.

فتح عينه بعد بضعة أيام فوجد نفسه في المستشفى محاطاً بأفراد أسرته، تهللت وجوههم حين ابتسم لهم، وقال سائلاً:

«ما الذي حدث؟!... وما هذه الضمادات على جسدي؟!!..».

حكــى له أهله ما حدث منذ خروجــه من البيت إلى أن وقع الحادث واتصال المستشفى بهم بعدمــا عرفوا هويته من الأوراق التي وجدوها في جيب سترته. ضحك «سعيد» ملء فيه، وقال:

«هذه مصيبة جديدة تضاف إلى سلسلة مصائبي!!..».

فقالت زوجته، عاتبة:

«الحمد لله أن لطف بك وإلا لما كنت الآن بيننا تنعم بالحياة».

فرد متهكمًا:

«أنعم بالحياة؟!..».

اقتربت منه والدته ورفعت يده إلى فمها تقبلها، ثم قالت وهي تمسح على جبينه كطفل صغير:

«مهما تكن المصائب التي تلاقينا في دنيانا، فهي إلى زوال... سواء سعدنا أم شقينا، سكنا قصرًا أم كوخًا، أكلنا أطايب الطعام وارتدينا أفخر الثياب أم عشنا دون ذلك، فكل شيء إلى زوال... الحياة يا ولدي، فرصة لنا؛ لكي نصلح شؤوننا ونتدارك أخطاءنا، وأنت يا بني، مريض ولا سبيل لشفائك، وأسباب المرض تحكم خناقك، فاهرع إلى الله عساه يرحمك كما رحمك الآن، ونجاك من موت محتم».

ونظرت إلى أطفاله، ثم أضافت تقول بنبرة حانية:

«لا بد أن تحب الحياة لأجلهم... لمن تتركهم إذا رحلت عنهم؟».

أمعن النظر إلى وجوههم البريئة وأشفق عليهم، إذ تصورهم بين مخالب الدهر يذوقون ألوان الذل، فضمهم إليه بقوة، وتمتم يسأل زوجته:

«متى أخرج من هنا؟».

«بعد أيام قليلة».

فــي بيته، جلس يفكر بعد نوم الجميع، وشعر بألم رأسه يعاوده من جديد، فنهض من مكانه وتوضأ، ثم وقف بين يدي خالقه وخشع كما لم يخشع في حياته كلهــا، وما بدأت آيات القرآن اليسيرة تتلى على لسانه حتــى أجهش بالبكاء فتبلل وجهــه، وشعر بدموعه تغســل قلبه، وتحييه كمــا تحيي الأمطـار الغزيرة الأرض الموات، ولحظـات فقط غـاب عن الوجود بأسره، محلقًا في عوالم أخرى، حيث الراحة والاطمئنان.



ثمن الخطيئة

خرجـتُ للسوق ذات يوم بارد مع صديقة لـي، وبينما نحن سائرتان نتجانـب أطراف الحديـث اقتربت منا فتاة متسولة ترتـدي خرقًا بالية، وتحمـل فـي يدها اليسـرى طفلاً صغيرًا فـي أشهره الأولى، مـدت إلينا يمناهـا فـي استحياء دون أن تتلفـظ بكلمة أو تفعل مـا يفعله غيرها من المتسولين حين يلحون في السؤال عسى أن يستدروا بذلك عطف الناس، وترق قلوبهم، فينالوا بعض ما في جيوبهم، ونظرت إلى وجهها، فإذا هي تحـاور إخفاءه خلف خمار كبير يغطي كامل رأسها، ولم ألمح غير عينين متألمتيـن سارعـت بخفضهمـا حين وضعت بعض الدنانير فـي يدها، وضمت طفلها إلى صدرها، وتسللت بين جموع الناس تواصل عملها.

لا أدري أي شعـور انتابنـي تجاه هـذه الفتاة، فقـد كانت في مطلع الشباب وبدت لـي جميلة ومهذبة برغم الملابـس المتسخة التي تستر بهـا جسدها الواهن، وشعرت فـي داخلي أن هذه الفتاة ليست متسولة، وأن ظروفًا قاهرة دفعت بها إلى هذا المآل المحزن.

التفت إلى صديقتي أبغي البوح لها بما يجول في خاطري، فوجدتها تتبـع تلك الفتاة بنظرات فاحصة، وقد تغير لون وجهها، وانتابها ذهول صمّ أذنيها عن سماعي، فتوقفت وضغطت على يدها بقوة، قائلة لها:

«ما بك نعيمة؟... أراك تلاحقين تلك المتسولة ببصرك ولا تدرين ما يدور حولك؟..».

فنظرت إلي نظرات ساهمة، وهي تقول كأنها تحدث نفسها:

«إنها سعاد... أنا متأكدة أنها سعاد».

«سعاد!!... هل تقصدين الفتاة المتسولة؟».

«نعــم... إنهــا هي، أنا أعرفهــا جيدًا، ولا يمكــن أن أتوه عنها حتى لــو أخفت وجهها... يا إلهــي، من يصدق أنها أصبحــت متسولة تجوب الشوارع في هذه الحالة المزرية».

«هل تعرفينها حق المعرفة؟!».

«هــي جارتنا عندما كنا نسكن المدينة التــي غادرناها منذ أشهر؛ لنقيــم هنــا، لكن علاقتــي بها كانت سطحيــة، إلا أن أهــل الحي بدؤوا يتناقلون أخبارها بالتفصيل، وكأنهم كانوا شهودًا على ما حدث لها».

«وماذا حدث لها؟»... سألت والفضول يتملكني لسماع حكايتها.

عند العودة جلست مع نعيمة في الغرفة، وبدأت تسرد قصة جارتها منذ بدايتها:

«اسمها سعاد، في الثانية والعشرين من عمرها، نشأت وسط أسرة صغيرة ميسورة الحال، كانت تعيش في فيلا صغيرة قرب بيتنا مع أمها وأخيهــا، وكانت قــرة عين أمها وتحظى بمكانة عزيــزة في قلب أخيها؛ لأنها الصغرى، وقد نشأت مدللة لا يرفض لها طلب ومحاطة بكل الحب

والحنـــان، فلا عجب أن كبرت مرهفـــة المشاعر، رقيقة النفس حالمة الفـؤاد، وتغلب عليها طيبة وأدب عاليـان زادا من جمال روحها على ما تتميز به من جمال فطري هادئ.

إن صورتهـا الآن بين عيني عندما ألتقيها خارجة من بيتها بقوامها الرشيق وأناقتها الرفيعة، وإني لأمعن النظر في وجهها؛ إعجابًا بجمالها فـأرى عينيها السوداوين الكبيرتين تنبعـث منهما فرحة كبيرة بالحياة وشعرها الأسود الغزير يتدلى علـى كتفيها يتوج جمالها الساحر، تقول بصوت خفيض: «صباح الخير».

وأرد تحيتهـا الصباحيـة، يملؤنـي الإعجاب بلطفهـا وأدبها، فهي متواضعـة جـدًّا ولـم تسـئ لأحد قط، بل أجدهـا ساذجة وربما كانت سذاجتها وراء مـا حدث لها.

فتـح أخوهـا الطبيب عيـادة خاصة في حينـا، أما هـي فلم تنجح في دراستهـا، فتوجهت إلى التكوين المهني؛ لتتـوج دراستها بعد ثلاث سنوات بدبلوم سمح لها الحصول على عمل في أحد بنوك المدينة، وفي عالـم العمل الرحب تفتح عقلها على آفـاق جديدة لم تعرف لها وجودًا من قبل، وأهم شيء تفتحت عليه، علاقتها بالجنس الآخر.

كانت جالسة في مكتبها ذات صباح بعد بضعة أسابيع من تعيينها، حين دخل شاب وسيم وحياها تحية ناعمة، وهو يقول:

«أعتـذر على هذه الزيارة المفاجئة، لكنني أريد التحدث إليك، هل هذا ممكن؟».

فقالت مبتسمة:

«بالطبع، تفضل بالجلوس».

واتخذ له مجلسًا على مقعد كان أمامه، وبعد تردد قال:

«اسمحي لي أن أدخل في الموضوع مباشرة... في الحقيقة أنا... أنا معجب بك كثيرًا، فمنذ رأيتك أول مرة هنا شعرت بشيء قوي يجذبني إليك، ولم أستطع منع نفسي من التفكير فيك وبودي التعرف عليك أكثر، فماذا تقولين؟».

ارتبكت الفتاة وتوردت وجنتاها خجلاً، فهذه المرة الأولى التي يفضي إليها شاب بمثل هذا الحديث، وتلعثم لسانها، وهي تقول:

«إننا في مكان عمل، ولا يجوز أن نتحدث في مثل هذه الموضوعات، أرجوك أن تنصرف».

«ولكن... أين تريدينني أن أتحدث إليك... في الشارع؟!..».

فقالت معترضة:

«بالطبع لا..».

«وأين إذاً؟!... لا يمكن أن نلتقي في مكان آخر غير هذا، على الأقل في الوقت الحالي».

«ولكن..».

«لكن ماذا؟... هل أنت خائفة؟».

«إنني أعرض عليك صداقتي، هل تقبلينها؟».

لكنني لا أعرفك».

فقال الفتى، وهو يعتدل في جلسته:

«أعرفك بنفسي: اسمي – جمال – أعمل بهذا البنك منذ سنوات، في الثلاثين من عمري، لست متزوجًا، لكنني قد أفعل قريبًا... لدي مسكن خاص ومجهز لا تنقصه سوى امرأة جميلة مثلك تحمل الدفء إلى غرفه الباردة، وتعمر جنباته الفارغة».

وصمت وهو ينظر إلى عينيها نظرات جريئة، فخفضت سعاد بصرها، وتشاغلت بحمل الأوراق بين يديها ووقفت تتظاهر بالرغبة في الانصراف، وقالت:

«أرجوك، لدي عمل كثير، وقد أخرتني ما فيه الكفاية».

فقال، واقفًا بوقوفها:

«أتعدينني بلقاء آخر؟».

فردت دون أن تنظر إليه:

«لن أعدك بشيء».

فغادر مبتسمًا، وهو يقول:

«إذًا أنا من يعدك بزيارة أخرى!!..».

وأسرع بالخروج؛ حتى لا يعطي لها فرصة الرد، رمت سعادة جسدها المرتعش على الكرسي، وشعرت بقلبها ينبض نبضات سريعة

متلاحقــة، ومكثــت كذلك وقتًا غيــر قليل حتى دخلت إحــدى زميلاتها فشغلتها بأحاديث شتى أنستها ما كان لها مع ذلك الشاب الجريء.

عندمــا اختلت سعاد بنفسهــا مثل أمام عينها جمــال، وبرغم أنها كرهــت منه جرأته إلا أنهــا أعجبت بوسامتــه وشخصيته، فقد بدا لها قويًّا، واثق النفس، وتساءلت في أعماقها:

«أحقًّا يحبني؟!... هذا ما قاله لي... لا، هو لم يقل: إنه يحبني، بل أبدى فقط إعجابه بي... أليس الإعجاب بوابة الحب؟!..».

لم تحدّث سعاد أمها بما حدث لها برغم أنها كانت في سابق عهدها تخبرها بــكل أمر، وانطوت على نفسها في غرفتهــا تعاود التفكير فيه، وقضت ليلة مضطربة لا تغفو حتى تصحو على صدى كلماته الجميلة.

فــي مساء اليوم المقبل لم يتردد في دخول مكتبها والجلوس إليها، وبعــد صمت لحظات قــال، محــاولاً الوصــول إلى قلبهــا بالدخول عبر عينيها الجميلتين:

«أرجو ألا أكون قد أزعجتك».

فصمتــت ولــم تنبــس بكلمــة، فقال وقــد رســم على وجهــه حزن العاشقين:

«لم أستطع النوم ليلة البارحة..».

فرفعت إليه عينين ذابلتين، فواصل يقول:

«صورتــك لا تفــارق خيالي أبــدًا، عينــاك الجميلتــان وابتسامتك

الساحرة التي تبخلين بها علي... كل شيء فيك يجذبني إليك، وسعادتي هي أن أكون دومًا بقربك».

واكتفت بالنظر إليه وكأنها تتحرى صدقه، وفي داخلها مشاعر تتضارب كأمواج البحر الصاخبة، وفجأة أمسك يدها وضغط عليها، وهو يقول متذللاً:

«سعاد... إنني أحبك، فهل تقبلين حبي؟».

وجذبت يدها وقد فاجأها تصرفه، وشعرت كأن مسًّا أصابها فهز جسدها هزًّا عنيفًا، ونطقت أخيرًا ودمعتان تتلألأان في مقلتيها:

«أرجوك جمال، أن تفهمني، إنها المرة الأولى التي يحدثني فيها شاب مثل هذا الحديث، وقد فاجأتني، ولم تترك لي فرصة التفكير في كل ما يحدث لي».

وشعر بالنصر، إذ دفعها للكلام أخيرًا وجعلها تنطق اسمه دون شعور منها، وقال يغازلها بعينيه، ويمطرها بكلماته العذبة:

«يسعدني أن أكون أول رجل في حياتك، وأرجو أن تعذريني لمفاجأتي إياك بمثل هذه التصرفات، لكن صدقيني عاطفتي ملكت عليّ نفسي ودفعتني للحديث إليك دون مقدمات، وربما بجرأة لم تعهديها، وكل ما أتمناه أن تقدري الحب الذي أحمله لك في قلبي، وتمنحيني سعادة القرب منك والتعبير عن حبي لشخصك».

ولم تدرِ الفتاة ما تقوله، فهو يكلمها بحرارة أشعرتها بصدقه، فما الذي يجبره على الحديث إليها بالذات، والفتيات حوله كثيرات، ولن يقابل بالرفض من أي منهن؟؟!!..».

والتقت نظراتهما ولـم تخفض بصرها هذه المرة، وكأنها تريد أن تكشف خبايا نفسه، وسعد جمال بهذا التقدم الملحوظ في مدة وجيزة وهمّ بالكلام حين بادرت، قائلة:

«بالأمس عرضت علـيّ صداقتك وأنـا أقبلها... فلنكـن صديقين فقط، ولنترك أي شيء آخر للوقت، ولا نتسرع».

وافـق جمال علـى رأيها، فهو يمسك بأول الخيـط وسيصل نهايته حتمًا. وبحكم الصداقة التي اتفقا عليها أخذ الشاب يتردد على مكتبها بيـن الحين والآخر يحدثها عـن نفسه وتحدثه عـن نفسها في جلسات طويلـة، وألفـت الفتاة وجوده فـي حياتها، فأصبحـت تنتظر قدومه كل يـوم، فـإذا تأخر عن زيارتها ذهبـت إليه تقاسمـه جلساته في مكتبه، وسرعان ما تمكن من قلبها البكر الذي جعل منه فارس أحلامها.

تطـورت صداقتهما بسرعة كبيرة لتتحـول إلى حب صريح بينهما، ولـم يمضِ وقـت طويل حتى بـدأت سعاد تعبـر عن عاطفتهـا تجاهه، وتظهر له سعادتها بحبه، وشغفها بلقائه.

أقبل عليها ذات صباح حاملاً باقة ورد جميلة، قائلاً:

«ما رأيك لو نتناول الغداء معًا اليوم؟».

قبل أن ترد على طلبه المفاجئ، قال شارحًا:

«أعـرف أنك تتناولين غداءك هنا مع بعض زميلاتك؛ لبعد بيتك عن هذا المكان، وساعة واحدة لا تكفي لذهابك وعودتك، لذلك أتمنى أن تقبلي دعوتي على الغداء اليوم... ماذا قلت؟..».

نظـرت الفتاة فـي عينيه، وبرغـم أنها ترفض فكـرة الخروج معه إلا أن لسانهـا لم ينطـق بكلمة رفض أو اعتـذار، فاستغل صمتها وبادر بالخروج، قائلاً:

«رائع... سأمرّ عليك عند منتصف النهار... لا تنسي موعدنا..».

خرجـت سعـاد مـع جمـال لأول مـرة، وركبـت سيارتـه الفاخرة، وفـي مطعم جميل يطل علـى البحر تناولا غداءهما وهـو لا يتوقف عن الحديـث، في حين بدت صامتة، وعلى وجهها ارتسمت علامات الحيرة والقلق، انتبه إليها وقال يضم يدها الصغيرة بين راحتيه:

«ما بك سعاد؟!... أنادمة على خروجنا معًا؟».

فقالت تغالب الدموع في عينيها:

«إنها أول مرة فـي حياتي أقوم بشيء دون علم أمي... منذ عرفتك وأنـا أخفي عنها أمورًا كثيرة برغم أسئلتها وشكوكها... أنا فعلاً تغيرت وإلا لمـا استطعـت الجلوس معك في هذا المكان... مـاذا لو رآني أخي معك؟!..».

فقال جمال يطمئنها:

- «لا تخشي شيئًا، لو رآنا سأخبره بالحقيقة».

- «أي حقيقة؟!!..».قالتها مذعورة.

- «متحابان، وسأتقدم لخطبتك قريبًا».

- «ومتى ذلك يا جمال؟».

- «قريبًا... قريبًا جدًّا حبيبتي..».

ومازال يحادثها حتى زالت مخاوفها، واطمأنت نفسها، فأقبلت على الطعام تأكل بنهم ضاحكة مرحة، وأحلام الزواج السعيد تداعب خيالها.

وتكرر خروجهما معًا، من المطعم إلى قاعات الشاي، إلى الحدائق الغناء ينعمان بدفء الحياة وجمال الطبيعة، وينظران إلى الدنيا بأعين العاشقين السعداء.

أقنعها ذات يوم ألا يمكثا في المكتب إلا قليلاً، ثم يغادراه لقضاء يوم كامل في التجوال، ويعيدها قبل انتهاء مواعيد العمل. قال، وهو يضمها إلى صدره:

«أريد أن أقضي معك يومًا كاملاً لا يعكر صفو حياتنا شيء في الدنيا يا ملكة قلبي، وحبيبة عمري».

كيف لها أن تقاوم إغراءه، وهي تشعر بضعف شديد تجاهه، وكأنها طفلة صغيرة أمام معلم كبير ليس لها إلا أن تنصاع لأوامره وتنفذ مطالبه؟!...

خرجا في الصباح، وبعد أن أعياهما التجوال عرّجا على أحد المطاعم الفاخرة، فتناولا غداءهما، ولأن مساء الأيام الصيفية كان طويلاً والجو حارًّا فقد شوقها لرؤية مسكنه الذي سيصبح مسكنها قريبًا، وعرض عليها أن يقضيا فيه أمسية حالمة، لا يشاركهما فيها أحد.

توقفت السيارة أمام عمارة حديثة، ونزلا يتأبط ذراعها كأنه يخشى أن تفلت منه، وقالت حين فتح باب شقته:

«أتعتقد أنه من الضروري زيارة بيتك الآن، ولا أحد فيه؟..».

فقال، وهو يدفع الباب، ويجرها إلى الداخل، والابتسامة لا تفارق شفتيه:

«بالطبع يا حبيبتي، ألن يكون بيتك بعد أشهر قليلة؟ لا بد أن تريه، فربما كان لك رأي آخر في أثاثه وديكوره... إن ذوق الرجل ليس كذوق المرأة أبدًا».

وأمسك يدها وطاف بها يريها المطبخ وغرفة الاستقبال وغرفة الأطفال، وما أشد دهشتها حين فتح باب غرفة النوم، لقد كانت جميلة ومجهزة بأحدث الأثاث، اقترب منها، وهمس في أذنيها:

«هذه غرفة نومنا... ما رأيك فيها؟».

قبل نهاية مواقيت عمل المساء كانت سيارة جمال متوقفة أمام مبنى البنك وداخلها كانت تجلس سعاد، وعيناها مبللتان بالدموع، قال وهو يضغط على يدها:

«لم البكاء يا سعاد؟... إننا سنتزوج قريبًا، أعدك بذلك».

نظرت إليه نظرات دامعة، ثم نزلت مسرعة، كأنها تهرب من شبح يلاحقها، لم تستطع النوم ليلتها، ولم تفتح الباب لوالدتها، وصرخت من غرفتها:

«أرجـوك يـا أمي، اتركينـــي بمفردي، إننـــي مريضـــة، وأريد النوم الآن».

تظاهــرت بالمرض خــلال أسبوع كامل لم تذهب فيــه لعملها، ومع بدايــة الأسبوع الثانــي غادرت المنــزل متوجهة إلى البنــك، وانتظرت مجيئــه أغلب اليوم، فلم يــأتِ فتوجهت إلى مكتبه تســأل عنه، فإذا هو فــي إجازة تستغرق شهرًا، ولم تدرِ كيف تتصل به، فهي لا تعرف هاتف منزلــه ولا مسكنــه مع عائلته، أمــا مسكنه الخاص فلا يذهــب إليه إلا قليلاً. ولم تجد أمامها سوى الصبر حتى تنقضي مدة الإجازة.

بعــد شهــر، جاءها مرحًــا كعادته، وما إن دخــل مكتبها حتى أغلق الباب، وضمها بين ذراعيه، وقال لها:

«سامحينـــي حبيبتـــي، لقد اضطــررت لأخذ الإجــازة قبل عودتك، وسألت عنك قبل ذلك، وقيل لي: إنك مريضة فهل أنت بخير؟».

فدفعته عنها، وقالت ترمقه بنظرات غاضبة:

«لــو كنت فعــلاً تحبنـــي لزرتني في البيــت؛ لتطمئن علــى صحتي، وتتعرف على أخي، ثم تستغل فرصة تعارفكما لطلب يدي منه، وأنا على يقين بأنه لن يرفضك؛ لأنني أحبك».

فقال مندهشًا:

«أأخطبك وأنت مريضة؟!... ثم كان لا بد لي من السفر خلال هذا الشهر لذلك لم أستطع زيارتك».

«ومتى ستتقدم لخطبتي؟ لقد وعدتني بالزواج قريبًا».

فقال متظاهرًا بالأسف الشديد:

«سنتزوج ما في ذلك شك، لكن أمي بالمستشفى هذه الأيام لإجراء عملية خطيرة، فأمهليني حتــى تشفى وتعود إلى البيت، ثم أفاتحها في الموضوع».

وصدقت الفتاة زعمه، وأسفت لحال أمه، وعرضت عليه أن تزورها، لكنــه أخبرها بأنها تعالج في مستشفى مدينة أخرى تتوافر فيها وسائل علاج حديثة. واستطاع مرة أخـرى بكلامه المعسول وحججه المحبكة بإتقان أن يطمئنها ويعيد إليها ثقتها به.

عرضـ عارض ذات يـوم أجبرها على زيارة طبيــب، وفزعت حين هنأها بحملها معتقدًا أنها سيدة، وعادت إلى بيتها، شاردة الذهن، وقد اسودت الدنيا في عينيها، وهي ترى كل حياتها على حافة الهلاك.

التقتــه صباح اليوم المقبل كعادتها، وحملـت إليه النبأ؛ ليستعجل إجــراءات الزواج، فصدمتــه المفاجأة صدمة لـم يتوقعها، وثـار في وجههــا يوبخها؛ لأنها لم تحتط للأمر، وألقــى اللوم عليها، وبقيت هي تنظر إليه مشدوهة، لا تعي ما يصدر منه، ثم هدأت ثورة غضبه، فجلس يسترجع أنفاسه ويمسح العرق المتصبب على جبينه، ثم قال:

«سنلجأ إلى مختص لإجهاضك».

فصرخت في وجهه كالصاعقة:

«الإجهاض؟!!... إنه ابنك وابني، ولن نصحح خطأنا بخطأ آخر أفظع منه».

فقال متظاهرًا بالهدوء:

«قلت لك: لا أستطيع الزواج الآن... لا أستطيع.».

«لماذا؟... ليس لهذه المشكلة غير حل واحد، الزواج وفي أسرع وقت، أتريد أن تحطمني؟..».

وارتفعت أصواتهما داخل المكتب، وخرج حين وصل النقاش بينهما إلى طريق مسدود، بعد أن خيرها بين أمرين لا ثالث لهما: الإجهاض أو تحمل مسؤوليتها وحدها.

غاب العاشق المزعوم عن العمل ولم تعثر له على أثر فاستقلت سيارة أجرة أوصلتها لمسكنه الخاص. وبخطوات متثاقلة صعدت إلى المسكن الذي سلبها هناءة عيشها، ودقت الباب فخرجت إليها امرأة في مقتبل العمر، سألتها مرادها؟ فقالت سعاد خجلة:

«هل هذا منزل جمال؟».

«نعم... أنا زوجته، هل من خدمة؟».

صعقت سعاد حين سمعت كلامها، ورأت طفلاً في الثالثة متعلقًا بطرف ثوب أمه، وانتهى إلى سمعها صراخ طفل آخر... بحثت عن كذبة تبرر بها مجيئها، لكن عقلها خذلها، ولم تجد ما تقوله، فقالت الزوجة وقد ارتابت لأمرها:

«من أنت؟... وماذا تريدين من زوجي؟!...».

فقالت سعاد بكلمات متقطعة:

«في الحقيقة... أنا... أنا زميلته في العمل، وجئت أسأل عن ملف مهم كان بحوزته قبل أن يغادر... هل لي أن أعرف أين هو الآن؟».

«لقد سافر إلى الخارج، ولن يتمكن من العودة قبل نهاية العام... إن اتصل هاتفيًّا فسأسأله عن الملف».

قبل أن تنصرف، فكرت سعاد أن تخبرها بكل شيء، لكنها أحجمت عن ذلك، وقالت تحدث نفسها:

«ما ذنبها هي أن أحطم بيتها وأشتت أطفالها... يكفي أن حياتي ضاعت أفأضيع بيدي حياة هؤلاء الأبرياء أيضًا؟!... لقد نلت جزائي حين رضيت بإقامة علاقة مع رجل غريب خفية عن أهلي... إنه خطئي، ولا بد أن أنال عقابي».

قضت سعاد يومها هائمة في الطرقات تذرف دموع الحسرة والندم. فقط أدركت أنه ذئب خطط بذكاء لينال من فريسته، وعندما حقق بغيته اختفى دون أن يعبأ بالمصير الذي ينتظرها. ما أسهلها من فريسة وسط هذه الغابة الموحشة بين مطامع الرجال الحيوانية.

«الجبان الحقير... ليتني لم أستمع لكلامه، ولم أصدق وعوده... لقد آمنت بحب قضى على أحلامي، وحطم آمالي، ورماني في هوة سحيقة لا قرار لها... لم يعد لي حق في الحياة بعدما أتيت، ليس لأمثالي من جزاء غير الموت».

أذكر الحزن الذي خيم على بيتها تلك الأيام، سمعت الناس يتحدثون عن الرسالة التي تركتها قبل أن ترحل. كتبت إلى والدتها وأخيها رسالة قصيرة لم تقل فيها غير كلمات قليلة:

«أمي الحبية... أخي العزيز...

لم أعد سعاد التي عرفتماها... لقد أتيت ذنبًا لا يستحق فاعله إلا الموت. آسفة على العذاب الذي سأسببه لكما، وآسفة لأني خنت ثقتكما بي وقابلت تربيتكما الفاضلة بمثل هذه الخطيئة. أفضل أن تبكيا لموتي على أن تتعذبا لذنبي. لا أدري إن كنت أستحق عفوكما وصفحكما.

المحبة لكما دومًا: «سعاد»

بحث عنها أهلها في كل مكان دون أن يعثروا لها على أثر، واعتقد الجميع أنها انتحرت بطريقة ما. واليوم فقط عرفت أنها لم تنتحر، لكنها هربت إلى هذه المدينة البعيدة تعيش وابنها على التسول... إنها تدفع ثمن خطئها.

لم تبلغ صاحبتي هذا المبلغ من القصة، حتى ضاقت نفسي وشعرت بالعبرات تهبط على خدي، وقلت لمحدثتي بأسف شديد:

«لا أحد يأمن على نفسه من غدر الناس وتقلباتهم، وإذا لم نتمسك بحبل الله، فلا شيء يحمينا من أنفسنا وممن هم حولنا».

وسرحت بذهني أعيد التفكير في أمر تلك الفتاة البائسة، وسألت نعيمة، وهي تضع أمامي فنجانًا من القهوة:

«هل تعتقدين أن أهلها قد نسوها؟».

«بالطبع لا، فأمها تحبها حبًّا عظيمًا، وربما أودى بها حزنها عليها».

«ربما لا تزل تبكيها حتى الآن، وتتمنى فقط لو تعلم مصيرها».

«محتمل جدًّا».

واحتسيت قهوتي، ثم قلت معقبة على حديثي:

«ألا تفكرين في طريقة نساعدها بها؟... لقد آلمني حالها كثيرًا قبل أن تروي لي قصتها، والآن أرى أنه من الضروري مساعدتها وقد نالت جزاء ما اقترفته من ذنب... ألم تنتبهي لجسدها النحيل، كيف يرتعش من البرد وطفلها بين ذراعيها يكاد يهلك بردًا؟!».

فقالت نعيمة، والألم يعتصر قلبها:

«يؤلمني مآلها كثيرًا، وما ارتكبته من إثم لم يكن برغبتها، بل لأنها ساذجة وخرجت إلى الحياة دون أن تتسلح بالذكاء والفطنة، حتى لا تنخدع هكذا بسهولة ومع أول رجل يحادثها، وما يؤكد رأيي أنها لم تتجه – بعد إثمها – للمتاجرة بجسدها والانضمام إلى بائعات الهوى، وما أكثرهن في المدن الكبيرة.

لقد اختارت التسول وخبأت جسدها وجمالها خلف تلك الثياب الرثة، ولم تتبع ذلك السبيل الدنيء».

وخطرت ببالي فكرة، فقلت:

«ما رأيك لو نتصل بأخيها ونخبره بالحقيقة ونرى ما يكون رد فعله، فإن هشّ للأمر أعلمناه بمكانها، وإلا ننكر الأمر ونبحث عن طريقة أخرى لمساعدتها».

قفزت صديقتي فرحًا، وقالت:

«هذا ما سنفعله فورًا..».

بحثنا عن رقم هاتف الطبيب في الدليل ولم نجده إلا بعد جهد جهيد، وتحدثت إليه نعيمة دون أن تذكر هويتها، وما إن ذكرت أخته حتى اضطرب صوته واختنقت كلماته، وشعرت به يكاد يطير فرحًا حين أخبرته أنها لا تزال على قيد الحياة. توسل إليها أن تدله على مكانها؛ لأن والدته تلازم فراش المرض منذ رحيل سعاد المفاجئ، وهي لا تريد شيئًا في الدنيا سوى أن تراها قبل أن تموت.

واتفقنا معه على زمن اللقاء ومكانه، بعدما أيقنا أن الفتاة ستحظى برعاية أخيها ووالدتها.

رافقتها ذلك اليوم، لم تنتظر طويلاً، إذ أتى شقيق سعادة مهرولاً يتفحص الوجوه؛ بحثًا عنا، توجهنا إليه وجلسنا ننتظر قدومها في المكان الذي تتسول فيه، لكنها لم تظهر ذلك اليوم والأيام التي أعقبتها، حتى تملكنا اليأس. وبينما نحن جلوس ذات يوم نتفحص أوجه المتسولين كعادتنا، إذ ظهرت من بعيد تجر قدميها بصعوبة، وعيناها معلقتان بالأرض لا ترفعهما أبدًا. كانت تبدو مريضة، واهنة القوى، تمد يدها في ذل وخنوع. لم يستطع شقيقها منع دموعه حين وقعت عينه على

أخته الحبيبة في هيئتها تلك. انتظر حتى اقتربت منه، وعندما مدت يدها نحـوه أمسكها بحنو كبيـر وخبأها بين راحتيه... لـم تستطع الفتاة لفرط ضعفها أن تسحبها منه، بل رفعت بصرها إليه، فإذا بعينيها تلتقي بعينيه، صعقتهـا المفاجـأة، وأرادت أن تهرب منه لكنه أمسـك ذراعها ثم ضمها إليه، وهو يقول منتحبًا:

«لا تخافـي شيئًا يـا سعاد، إنني أخوك ابن أمـك وأبيك، أفتهربين مني، وأنا أولى بحمايتك؟».

أخفـت رأسهـا بين ذراعيه وتعلقت به تعلـق الميت بأذيال الحياة، وصرخت:

«سامحني يا أخي... سامحني... سامحني..».

«لقـد سامحتك، وسامحتك أمي... هيا لنعـد إلى البيت، فأمنا لم تتوقف عن مناداتك وترقب عودتك كأنها كانت توقن بحياتك».

وهمّ بالمغادرة حين تذمر شيئًا، فقال لها:

«وطفلك؟!..».

فازدادت التصاقًا به وشهقت شهقة حزينة، وهي تقول:

«لقد مات منذ أسبوعين... مات بردًا وجوعًا ولم أستطع إنقاذه..».

أومأ إلينا الشقيـق برأسه يشكرنا على صنيعنا، ومضى يضم أخته إليـه، وهـي ترتعش بين يديـه، أجلسها قربه في سيارتـه، وقد أضحت حطامًا لامرأة سلبها رجل واحد كل معاني الحياة.

الأحلام الموؤودة

أسرعتُ لاستقباله في المطار، بعد غياب خمسة عشر عامًا قضاها فـي إنجلتـرا دارسًـا وباحثًا وعامـلًا في أشهـر الشـركات البريطانية المتخصصــة في الفيزياء النووية، لم يكن وحده، بل كان برفقة زوجته وطفليه:

«أهلاً بك في وطنك يا دكتور فؤاد، ابن الشيخ عبد الرحمن».

قلتها، وأنا أضمه إلى صدري مرحبًا به، فقال معاتبًا:

«دكتــور!!... مــا هذا يا سميــر؟ أتريد بكلماتك هــذه أن تضع بيني وبينك جدارًا من الكلفة المزيفة؟».

«إننــي أمزح فقط، ولو أنني فخور بــك... دكتوراه بالإنجليزية وفي الفيزياء النووية!!... إنك مفخرة لهذا الوطن، وعقلك العبقري المفكر من أندر العقول في الجزائر، بل في الوطن العربي كله».

«كفى يا سمير، رجاء، لا أحب مثل هذا المديح، فالفضل لله أن يسر لي سبل النجاح... أقدم لك زوجتي «جنيفر»... أقصد فاطمة الزهراء، فقد أسلمت عن قناعة وإيمان وأسمت نفسها «فاطمة الزهراء».

«متشرف جدًّا بمعرفتك سيدتي».

«أهلاً بك».

«وهؤلاء أطفالي: محمد ثماني سنــوات، وهدى ست سنوات... هيا سلما على عمكما سمير.. صديقي في كل مراحل العمر الطويلة».

أقبل الطفــلان نحوي، فقبلتهما وأنا معجــب بعائلة صديقي فؤاد، فزوجتــه ترتدي الحجاب الإسلامي الــذي يخفي ملامحها الإنجليزية، وطفلاه يبدوان مهذبين جدًّا.

«إلى أين نذهب الآن؟..». سألني فؤاد.

«إلــى فندق «الأوراسي» أشهر الفنادق فــي العاصمة، لقد خصص لكم فيه جناح فاخر بكل مستلزماته لإقامتكم المؤقتة، بعدها ستنقلون إلى مكان آخر يليق بمقامك أيها الدكتور العبقري».

أقام صديقــي في الفندق برفقة عائلته، وبقيــت أيامًا أتردد عليه، نخــرج للتجوال معًا فــي المدينة الكبيرة، نتحدث عمــا تغير في البلاد والعباد منذ رحيله.

وأخيرًا استلم عمله الجديد في إحدى الشركات الوطنية، ومحاضرًا أيضًــا للطلبة بالجامعة المركزية، فقلّت لقاءاتنا، ولم آسف لذلك، لقد أعجبني حماسه الشديد لنقل علمه الغزير في هذا التخصص الخطير إلــى وطنه وقومــه... لقد اختار العــودة بنفسه؛ ليسهم فــي بناء وطنه برغم الإغراءات الكثيرة التي عرضت عليه للبقاء هناك.

قال لي ذات يوم، ونحن نجلس في مقهى شعبي يقع في قلب العاصمة:

«عرضوا علي أعلى المناصب في أشهر الشركات البريطانية، وحتى خارج بريطانيا، وتركوا لي حرية اختيار المكان الذي أود الإقامة فيه، والمنزل الذي أفضله للسكن، ووضعوا تحت تصرفي سيارة وسائقًا دائمين... كل طلباتي مجابة، المهم أن أبقى في شركاتهم؛ ليستفيدوا من علمي وخبرتي. لكنني لم أستطع البقاء... وطني فوق كل شيء...».

مرت أشهر عديدة لم ألتقه فيها إلا مرات قليلة، لقد شغلتني أعمالي عنه، وشغلته أعماله عني، وذات يوم رن جرس هاتفي، فإذا به يطلبني قائلاً:

«سمير، يجب أن نلتقي الآن إن لم يكن لديك ما يشغلك، فأنا بحاجة إليك».

«أين تريد أن نلتقي؟».

«في أي مكان تختاره».

«حسنًا، سأمر عليك الآن بسيارتي ونخرج سويًّا، انتظرني..».

جلسنا في مكان هادئ يطل على البحر، وأول ما رأيته فزعت لأمره، إنه ليس فؤادًا الذي استقبلته منذ أشهر في المطار، كان يبدو ضعيفًا، واهن القوى وسحابة سوداء أخفت صفاء وجهه وبريقه الوضيء الذي رأيته عليه أول مرة... نظرت في عينيه، فإذا بي أقرأ فيهما قلقًا واضطرابًا، سألته وقد هالني أمره:

«ما بك يا فؤاد؟... أراك على غير ما عهدتك عليه؟!!..».

فأجاب دون مقدمات:

«هل تصدق يا سمير، أننا لا نزال نقيم في ذلك الفندق، وقد مرت خمسة أشهر على وصولنا؟!».

«ولماذا لم تنقلوا حتى الآن إلى مسكنكم؟!..».

«لا أدري!!... حقيقة لم أعد أفهم شيئًا».

«أرجوك يا فؤاد، اهدأ، وحدثني بتفصيل كل شيء».

«منذ وصولي – وفي كل يوم – لا أسمع إلا وعودًا لا تتحقق ومواعيد لا يحترم مواقيتها، وأشياء كثيرة متناقضة لا أكاد أجد لها تفسيرًا منطقيًّا، لكن الشيء الوحيد الذي أدركه حقًّا هو أن كل الأبواب موصدة في وجهي وكأنهم لا يريدون لي أن أعمل!!».

«من تقصد؟!».

«الجميع... كل من عرفت وقابلت وحدثت، السكن لم أحظَ به حتى الآن برغم الوعود الكثيرة... تصور باحثًا مثلي يعود إلى وطنه، فلا يأبه به أحد ولا يجد أين يقيم؟!!! جعلونا نقيم في فندق كالغرباء..».

أطرق يفكر، وابتسامة ساخرة على وجهه، ثم قال:

«حتى سائق السيارة التي وضعت تحت تصرفي للتنقل بين المصنع والجامعة لا أجده أبدًا، وكثيرًا ما أضطر للبحث عن سيارة أجرة أو أتنقل في الحافلة، وعندما أطلب منه تفسيرًا يقول: لا دخل له في الأمر،

فالسيارة يحتاجها أيضًا مدير المصنع أو عميد الجامعة أو مسؤول آخر لا أعرفه..».

ثـم سكت قليلاً عـن الكلام، وشفتـاه ترتجفان، وواصـل قائلاً في تهكم:

«لو رأيت السائق كيف يتعامل معي لتعجبت للأمر، كأني أنا السائق وهو الدكتور!!...، حتى إنني أصمت دهشة حين يتحدث، فدفعه هذا كي يتجرأ علي أكثر... وهل أخبرك بشيء آخر تذهل له؟... مرة بحثت عن سائقـي العزيز؛ لأن حاجتي إلـى السيارة كانت ملحة جدًّا، وسألت عنه حتـى وجدته في بيته... هل تعـرف أين يسكن؟... (فيلا) صغيرة تطل على شاطئ البحـر، كان مستلقيًا بالقرب منها يستمتع بالجو المنعش، ولمـا رآني نهض غير مبالٍ بي وعندمـا سألته عن الموعد الذي ضربته لـه أجابنـي بوقاحة: إن المديـر طلب منه ألا يبتعد عـن العاصمة؛ لأنه سيحتاجـه، وأن أوامره يتلقاها منه فقط، أما أنا فلا شيء... هل يعقل أن أجد مثل هذه التصرفات في بلادي؟!..»..

فقلت مبتسمًا في سخرية:

«معذرة صديقي، لكنك ستجد هنا العجب العجاب!!».

«وجدت العجب العجاب فعلاً، بل ربما أعجب منه».

فقلت مازحًا: «هات ما عندك».

«مـاذا تعتقد أننـي أنجزت في عملي خـلال الأشهـر الأخيرة؟... لا شـيء... صدقني إذا قلـت لك: إنني لم أفعل شيئًـا منذ وصولي إلى

هذه الساعـة... قد تتساءل لمـاذا؟ سأخبرك... فـي سلوكي وعاداتي اتبعـت نفس ما كنت أقوم به فـي إنجلترا، النهوض باكـرًا والمحافظة علـى مواقيت العمل وعدم تضييع ثانية واحدة خلال اليوم كله، هذا هو شأني منذ سنوات... لكن هنا كل شيء يسير بالمقلوب... لا أحد يحترم مواقيت العمل، ولا أحد يعمل بيديه وعقله بقدر ما يعمل بلسانه... أبحث عـن أبسط الوسائل لأباشـر أعمالي، فلا أجد شيئًـا، أقضي يومي كله مثـل كرة يتقاذفها مختلف المسؤولين باختلاف مراتبهم، ولا أجني في آخـر يومي غير وعود كاذبة... أذهب إلى الجامعة وأقول في نفسي هنا مستقبـل البلاد وأمـل الغد، أبذل جهدي لأعلمهم مـا أعلم، فإذا نخبة قليلـة تستمع فـي انتباه، وأمـا أغلبهم فيتهامسـون ويتضاحكون كأنهم أطفال صغار لا طلبة جامعيون!!!..».

انتقـل ببصره يرقب أمـواج البحر المتلاطمـة، وأحسست بنفسه تضطـرب داخله اضطراب تلك الأمـواج، ولأول مرة لمحت طيف دموع تتهادى في عينيه... قال، وبصره لا يزال معلقًا بالبحر:

«هـل تعرف ماذا فعلوا في إنجلتـرا ليستفيدوا استفادة قصوى من علمي وخبراتي؟!.. لقد جعلـوا عددًا معينًا من الطلبة يلازمونني أينما كنـت ولا يفارقونـي إلا حين أنصرف لأمـوري الشخصيـة، يدونون ما أقول وأعمل في الجامعة والمصنع، وفي أثناء الاجتماعات، بل حتى في الملتقيات الدولية التي أحضرها بين الحين والآخر... غيرنا يريدون أن تكـون لهم نسخ منا، وقومنا يريدون محـو وجودنا من أرضنا ويدفنوننا بعلمنا، فهم ليسوا بحاجة إليه، حاجتهم إلى المال والجاه والسلطان».

قلت يمزقني الأسف لحديثه:

«كل ما قلته الآن ليس غريبًا عني، وما أتيت بالجديد، فهذه سموم نتجرعها يوميًّا ولا نموت، وما كنت أستطيع مقابلتك بالحديث عن هذا، وقد عدت بكل تلك الحماسة... تمنيت أن يفتحوا لك الأبواب ويمهدوا السبل أمامك، لكن... أنت كغيرك من العلماء، غرباء في بلاد الجهلة والضعفاء».

أطرق قليلاً ثم رفع بصره، فإذا دمعة تهبط على خده الأسمر، سارع بمسحها وهمس:

«ويل لوطن يمزقه أهله، ويؤثرون مصلحتهم على مصلحته».

افترقنا ذلك اليوم ولم أفعل غير الاستماع إليه ومشاركتي حزنه، فالهمّ همّ الوطن بأسره، وهو قديم ألفناه، لكنه بالنسبة له جديد وأي جديد!!..

حرصت بعد ذلك على الاجتماع به كلما سمحت الفرصة، أحاول التخفيف عنه، وأطبع كل هم بمطابع النكتة والمزاح كما يفعل أغلب الشعب؛ حتى لا يثقل هذا العبء على صدره، لكن عبثًا أحاول، إذ كلما التقيته وجدته في حال أسوأ من قبلها. ذات يوم سألت عنه فلم أجده، فذهبت لزيارته في بيته... أقصد الفندق... وهناك قابلني مسهّدَ العينين، أشعث الشعر، كثير الشرود، فلما جلست إليه بادرته بالسؤال، محاولاً إخفاء فزعي عنه:

«كيف حال صديقي الحميم؟ وكيف هي زوجتك وأولادك؟».

«زوجتـــي وأولادي؟!... ربمـا أحسن حـالاً مني لكنهـم مثلـي... في صمت..».

«هل أنت نادم على عودتك؟!» سألته في إشفاق.

رد دون أن يلتفت إلي:

«نــادم من ناحية واحدة فقط، أن صــورة الوطن التي احتفظت بها في داخلي خلال كل هذه السنوات تشوهت، بل تكسرت كشظايا الزجاج المكســور... لو بقيت هناك ولم ألح في العودة لظللت محتفظاً بقدسية تلك الصورة و...».

فقاطعته معاتبًا:

«لا تخلط الأمور يا فـؤاد... الوطن بريء من كل التهم، وهو أقدس مــن أن تصــل إليه الأيدي، لكنهم قومي وقومك مــن شوهوا وكسروا... رجـاء لا تضف لآلام هذا الوطن الجريح ألــم ظلم العلماء، بعد أن عقّه الأبناء».

فقال، وقد هزه قولي:

«فعــلاً، الوطن هو الوطن لم يتغيــر أو يتنكر يومًا لأبنائه، وما وقف في طريقهم، بل إنــي شعرت به يضمني إليه حين وطئت قدماي ترابه، وكأنه أم تفتح ذراعيها لاحتضاني بعد طول غيابي».

اطمـأننت لحفاظه على ثبات مخبره برغم تهاونه في مظهره، وقلت له سائلاً:

«لماذا لم تذهب لعملك اليوم؟».

فرد ساخراً:

«اليوم؟!... إنني لم أذهب منذ أسبوع!!..».

«أسبوع!!..».

«اطمئن، لم يسأل عـن غيابي أحد، ولن يفصلوني عن العمل، فكل واحد مشغول بنفسه عن غيره».

«لكن، لماذا غيابك؟».

فقال جادًّا:

«إنني بصدد التفكير في مخرج نهائي لأزمتي... لا يمكن أن أستمر على هذا الوضع أبدًا».

«هل ستعود إلى انجلترا؟».

«لم أتخذ قراري بعد... أحيانًا يبدو لي أن أعود دون تفكير، وأعتبر ما حدث تجربة فاشلة في حياتي، كنت فيها ساذجًا، لكنني – في أحيان أخرى – أقول: لِمَ لا أجرب مرة أخرى، فربما تزول العقبات من طريقي، ويلوح فجر جديد... ولكن ما يثبط عزيمتي أنني أشعر في كل يوم بشيء مـا يتحطم في داخلي... عجبًا... هناك، وسط قوم غير قومي، يدينون بغيـر ديني، أشعر أنهم يسهمون بكل الطـرق للحفاظ عليّ، وهنا أشعر بـكل من حولي يحمل معولاً لهدمي وتحطيمي، الأقرباء.. زملاء العمل، الجيـران... أنـا أفهمهم وأفهـم دوافعهم، لم يشغلـوا أنفسهم بعظيم الأمور، فشغلتهم بحقيرها... هذه هي سنة الحياة..»..

مـرت أشهر أخرى ألتقـي صديقي فؤاد بين الحيـن والآخر، وكلما التقينـا يبثني آلامه ويفرغ لي ما بصدره، فأشجعه على الصبر والسعي ما استطعت، إذ إني أدرك أن عودته إلى بريطانيا خسارة كبرى للبلاد، غيـر أني إذا رأيته قويًّـا مقاومًا يومًا رأيته ضعيفًـا مستسلمًا في أغلب الأيـام، إنه يصـارع الأمواج العاتية، فكيف لـه أن يقاومها بمفرده دون أن تغرقه!!..

وضـرب لي موعـدًا ذات يوم، فإذا بـه قد أصلح حـال نفسه، وبدا أقـرب إلى أول عهـده، غير أن نظـرات عينيه تفضـح اضطراب نفسه وتذبذب مشاعره، وبعد أن جلسنا قال بنبرة ثابتة وصوت قوي:

«لقد طلبتك اليوم؛ لأودعك..».

فسألت مندهشًا: «تودعني؟!!..».

قال، وهو لا يزال على ثباته:

«نعم لأودعك... لقد فكرت كثيرًا في الأمر، ولم أجد حلاًّ آخر غير الرحيـل.. إذا بقيت هنـا سأجـنّ... أنا متعـود على أمــور كثيـرة هـي جـــزء لا يتجزأ من شخصيتــي، وفيها حفظ لكرامتــي ووجودي، وهذه الأمور للأسـف الشـديد لم أجدها هنا..»..

«هل هذا قرارك النهائي؟».

فقال، وقد اضطرب صوته:

«قرار نهائـي لا رجعة فيه... ليس لدي خيار آخـر، إنني هنا أضيع وقتـي وعمري في تفاهـات لا معنى لها، وهناك أعمـل وأنتج... أنا هنا أفقـد الكثيـر ولا أعطـي شيئًا وهنـاك أكتسب كل شـيء وأعطي كل ما أملـك... هناك أعيش الحياة الحقيقية بمعناهـا الواسع، وهنا أمارس الموت البطيء، ولن أرضى بهذا أبدًا وفي يدي الاختيار».

لـم أجد ما أقوله، فأطرقت صامتًا وقلبي في داخلي يتمزق دون أن أمنع ما لا مناص من حدوثه، فقال مواصلاً حديثه وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

«أهـم شيء اهتـز في تجربتي هذه نظرة زوجتـي – وحتى أطفالي – لـي... هي لم تقل شيئًا، فزوجتـي امرأة عاقلة وحكيمة ومتمسكة بدينهـا أكثر من تمسك أهلـه به، لكنني كلما نظرت فـي عينيها قرأت جملـة هي أشـد وطئًا على نفسي مـن كل ما لقيته من متاعـب... إنني أشعر بها تقول في سخرية:

«أهذا هو وطنك؟!!!...، أهؤلاء هم قومك وأهلك؟!...

قبـل أن آتـي كنت مزهـو النفس ببلـدي، وأرضي لكن هـذا الزهو تضـاءل في نفسـي وتلاشـى... والآن سأرجع معها إلـى بلدها، حيث يقدس العلم والعلمـاء... حيث العمل الكثير والـكلام القليل... سأقبل معك ما عرضوه علي وأكفي نفسي شر القتال..»..

فقلت دامع العين:

«ألن تندم على قرارك هذا؟..»..

فقال وقد قفزت دمعة إلى خده:

«لـن أندم أبدًا، فقد بذلت أقصـى ما يمكني بذله... لكنني قبل أن أذهب سأدفن أحلامي هنا، وسأعمل هناك بلا أحلام».

ومسح دمعـة، ثم وقف يودعني الوداع الأخير، وعندما رأى عبراتي قال محاولاً إخفاء حزنه:

«مـا هذا يا سميـر؟ إننا سنبقى علـى اتصال دائـم، وإن تباعدت المسافـات... هيا اضحك... فالأمر ليس بهـذا السواد، إنني جزائري مسلم، وسأبقى كذلك إلى آخر نفس في حياتي، ولا تنسَ أن لدي أطفالاً سأربيهم منذ الآن؛ ليحققوا الأحلام التي عجزت عن تحقيقها».

وضمني إلى صدره بقوة، قائلاً:

«سنسافـر في الصبـاح الباكر من يوم الغد... هـذا آخر لقاء لنا، أرجو أن تذكرني دائمًا، وتعذر رجوعي من حيث أتيت».

فقلت، وأنا أمسح دموعي:

«إنني أعذرك... هل ستعود لزيارتنا ذات يوم؟».

فقال وهو يمعن النظر إلى وجهي، ويكتم عبرات خانقة:

«لا أعتقد أنني سأعود... لا أعتقد..»..

القرية النائمة

حط «علــي» الرحال بالقريــة الصغيرة؛ ليقيم فيها مــع عائلته في المسكــن الوظيفي التابع للمدرسة التــي عين معلمًا بها، وبعد أن ساعد زوجتــه في ترتيب أغراض البيت، توجه إلى القرية يتعرف عليها. كانت صغيرة بشوارع ضيقة ومنازل بسيطة، ولم يكن بها سوى محلات ومقاهٍ قليلة ومدرسة واحدة تكفي لضم كل الأطفال.

كان علي يستطلع المكان، والدجاج يتسابق أمامه؛ باحثًا عن الغذاء فــي دعــة وأمان، بينمــا تبدو قطعــان الغنم من بعيد ترعــى تحت وهج الشمــس الساطعة على أرضــ شاسعة لبست فستانهــا الأصفر احتفالاً بمقدم الخريف.

بعــد جولتــه السريعــة، عاد علي إلــى المدرسة، وفــي فنائها وقف يتأمــل الأقســام الستــة بالرسومــات الساذجــة التــي تزيــن جدرانها ونوافذها، ودخــل مكتب المدير، وهو غرفة صغيرة تحوي مكتبًا بسيطاً وبعضــ الأدراج، تؤدي إلى غرفة أخــرى أكثر اتساعًا جعلت لاجتماعات المعلمين.

الهدوء يعم المكان، وبرغم ارتياح علي لهذه القرية الهادئة بأهلها البسطاء، إلا أنه تمتم وهو ينظر إلى الأفق الممتد أمامه:

«مـكان رائـع لمن يبغـي الراحة، وهـدوء الأعصــاب، وأروع بكثير للمتقاعدين والأموات!!!..». عمل علي بالتعليم سنوات عديدة في مدينة كبيـرة، فلمـا يئس من العثـور على مسكن مستقل قبِل مـا عرض عليه، وانتقـل إلى هــذه القرية، حيـث حصل علــى مبتغاه بجـوار المدرسة، فارتاح بذلك من عناء استئجار البيوت وتعب المواصلات والمصاريف التي تستنزف جيوبه شهريًّا.

في مسكنـه الجديد جلس يشاهد التلفاز مع أطفاله الثلاثة، سألته زوجته:

«هل أعجبتك البلدة؟».

رد دون أن يرفع بصره نحوها:

«لن نجد صعوبة في العيش هنا... إن تأقلمنا بسهولة، وسنقيم بها إلى الأبد..».

فقالت الزوجة بإصرار:

«يجـب أن نبقى من أجـل هذا المسكن الذي جمـع شتاتنا وأراحنا مـن عبء عظيم، وحتى نتمكن من ادخار بعض المال، فربما اشترينا مسكنًـا آخر يكون ملكاً لنـا أو قطعة أرض نبني عليها البيت الذي نحلم به».

وافقها الرأي، فلا بد أن يفكر بعقله وليترك عاطفته جانبًا، ولا يهم إن أعجبه المكان أم لا.

قال ابنه البكر ذو العاشرة:

«هل سأدرس في هذه المدرسة؟!..».

فقال الأب:

«نعم... فطبيعي أن تذهب لأقرب مدرسة من بيتك».

فقال غاضبًا:

«لكنني أريد العودة إلى مدرستي ومعلمي وأصدقائي».

فرد علي في رفق:

«هنا أيضًا سيكون لك معلم طيب وأصدقاء جدد وستحب مدرستك حتمًا».

فصرخ الطفل قائلاً:

«لا أريد أن أحبها... أرجوك يا أبي، أعدني إلى حيث كنت... أرجوك..».

اقترب منه الأب محاولاً إفهامه:

«إنك صغير يا بني، وعندما تكبر ستعرف أن الظروف كثيرًا ما تجبر الإنسان على فعل ما لا يريد. إنني لم أختر المجيء إلى هنا، ولكن لا بد من ذلك إن كنا نحرص على مستقبل أفضل لنا جميعًا».

نهض علي قبيل أذان الفجر، توضأ استعدادًا للصلاة، وجلس يقرأ ما تيسر من القرآن الكريم، ولم يرفع بصره عن المصحف، حتى رأى

خيــوط الصبح تتسلل عبر نافذة الغرفــة، وتعجب كيف لم يسمع صوت المــؤذن. فــي اليوم المقبل أرهف السمع ينتظــر أذان الفجر، لكن دون جــدوى، فصلى في البيت وعندما طلع الصباح توجه إلى مسجد القرية الوحيــد وسأل عــن إمامه فلم يجــده، فانصرف إلــى المدرسة، وعند صلاة الظهر اقترب علي من المؤذن، وسأله:

«هل أذنت لصلاة فجر هذا الصباح؟».

فأجابه المؤذن دون أن يلتفت إليه:

«لا..».

«وأمس أيضًا؟!!..».

فنظر إليه المؤذن – وهو كهل قارب الستين – وقال:

«أنا لا أؤذن للفجر منذ مدة طويلة!!!..».

فدهش علي للأمر، وسأل مستفسرًا:

«ولماذا؟!؟!!!..».

رد دون اكتراث:

«الإمــام لا يأتــي ليقيــم الصــلاة، فلمــاذا أؤذن، فيأتــي النــاس سدى!!..».

سأل علي، وهو يزداد دهشة:

«ولماذا لا يأتي الإمام لإقامة الصلاة؟!!..».

فحدجه المؤذن بنظرة غاضبة لكثرة أسئلته، وقال منصرفًا:

«هو أمامك... اسأله..».

توجه إليه عليّ، وبعد أن ألقى السلام بادره بالسؤال:

«هل لي أن أسأل: لِمَ لا تقام صلاة الفجر في هذه القرية؟!..».

تشاغل الإمام بحبيبات سبحته يعبث بها بين أصابع يمناه، وتمتم بكلمات غير مفهومة، فلما سمع سؤال محدثه توقف عن الهمس، وجمع سبحته في كفه وقبلها، ثم قال وهو يتفحص عليّا من خلال نظارته السميكة:

«ومن أنت حتى تسألني هذا السؤال؟!..».

فقال عليّ محترمًا وقار الإمام وكبر سنه:

«أنا مصلٍّ حرصت طوال حياتي على صلاة الفجر، وعندما أقمت حديثًا بقريتكم عجبت كيف لا تقام هذه الصلاة، ولا يؤذن لها أصلاً».

رد الشيخ متصنعًا الهدوء:

«كنا نقيمها فيما مضى من الزمان، لكن الناس لا يحضرونها أبدًا، وكنت أجد نفسي دائمًا وحدي مع المؤذن فقط، لذلك لم أعد أقيمها لكبر سني وملازمة المرض لي».

استغرب عليّ لمنطق الرجل، وتفكيره الغريب، فقال:

«ولِمَ لا ترتاح الآن، ويستخلفك إمام شاب يتولى هذه المسؤولية عنك؟!..».

أوشــك الإمام الشيخ أن يهجــم عليه لسماعه هــذه الكلمات، لكنه تماسك قائلاً:

«أنت تعرف شباب اليوم لا يستقرون على حال، وليسوا أهلاً لتحمل أي مسؤوليــة، ثم إنني إمام هذه القرية منذ أكثر من أربعين عامًا، ولن يرضى أهلها بغيري إمامًا لهم..».

ومشــى منصرفًــا يتكئ علــى عصاه، كأنــه يخشــى أن يمطره علي بأسئلة أخرى تعجزه عن الجواب.

بقــي علــي مشدوهًا، وتأهب للانصــراف حين أمسك بــه المؤذن هامسًا في أذنه:

«لا تصدق كلامه... إنه يكذب!!..».

والتفت حوله، حتى إذا اطمأن أن المكان خالٍ واصل يقول:

«لقد ورث الإمامة أبًا عن جد، وهو لن يتنازل عنها إلا إذا سيق إلى القبر، وطالما اشتكى منه أهل القرية لكن دون جدوى... هل تصدق أنه حين يحصل على عطلته السنوية ككل الموظفين لا تطأ قدمه المسجد، حتى تنتهي عطلته!!!... وفي أثناء موسم البرد والصقيع يركن إلى بيته ويخشى الخروج إلى الصلاة!!... هكذا كانت البداية مع صلاة الفجر، ثــم محاها من القائمــة لتصبح الصلوات الخمس عنــده أربع صلوات، وليس خمسا!!!..».

وصمت قليلاً ثم أضاف قائلاً:

«لا تعتقد أننا ساكتون عنه، لكن قريتنا صغيرة كما ترى والإمام له أبناء غلاظ جهلة، ومن مس أباهم بسوء دفنوه حيًّا!!..».

وانصــرف بعد أن أوصــى عليا بكتمان ما سمعه منــه؛ خوفا من دعاء الإمــام عليــه، أو بطش أبنائه بــه!!... في المقاهي والشــوارع، كان الناس يتحدثون عن محصول الأرض والآبار المحفورة وعن مشقة الزراعة والرعي وقطعان الغنم والأبقار، فإذا انتهوا من هذه الأحاديث انصرفوا إلى تناقل أخبارهم متحسرين على حاضرهم آسفين على مستقبلهم، وحاول علي أن يندمج معهم فلم يستطع، فعاد إلى بيته يلازمه أغلب الأوقات.

بــدأ الموسم الدراسي، فشعرت عائلة علــي ببعض الحياة تدب في أوصــال القرية الميتة، وأحدثت أصــوات الأطفال المصطخبة ضجيجًا أشبه بضجيج المدينة التي اشتاقوا إلى ضوضائها وصخبها.

انطلقت الدراسة بوتيرة بطيئة، واعتقد علي أنها ستتسارع، لكن وجد نفسه المعلم والمدير والحارس أحيانًا في مدرسة لا يأتيها أحد!!..

كان المدير ومعلمو المدرسة يقطنون المدينة المجاورة، ومع تردد غياب المدير كثر غياب المعلمين بحجة المواصلات والسكن والمرض وحجــج أخــرى كثيرة، وأصبح علــى المعلم الوحيد الــذي يمارس عمله بصــورة طبيعية، محافظــاً على الوقــت، حريصًــا على تعليم تلاميذه، وهــو يستشعــر رقابة الله، وكلما فتح فاه بالاستنكار قال زملاؤه:

«لو منح لنا سكن مثلك لحرصنا على عملنا مثل حرصك، لكن ماذا عسانا نفعل؟!..».

صبــر علــي أشهرًا طويلــة يسعى لإصــلاح حال القريــة، مسجدها ومدرستهــا، وتغيير ما بعقــول كبارها، وزرع بــذور الخير والصلاح في

قلـوب صغارها، وكان كلمـا خطا خطوة للأمام شعر بقـوة خفية تعيده للوراء بعشرات الخطوات، وتسلل اليأس إلى قلبه، وتملكه الملل من هذه القرية الظالم أهلها، وبعد تفكير طويل قرر الرحيل.

فاجأ زوجته ذات يوم قائلاً:

«سأكمـل العام هنـا من أجـل تلامذتي فقط، وسنرحـل مع عطلة الصيف، من المستحيل البقاء في هذه البقعة المقفرة».

فذعرت الزوجة، وقالت:

«والمسكن، وادخار المال، وبيت المستقبل؟؟!!..».

آسف لضياع هذه الأحلام، وقال:

«يجـب أن نضحي بشـيء من أجل أشياء أخـرى... هناك استقرار يدفع للإنتاج والعمل، أما استقرارنا بهذه البلدة فيعني الموت البطيء... لا مستقبل لنا ولا لأولادنا هنا، ولا بد من الرحيل..».

بدا الحزن على وجه الزوجة، فقالت:

«ولكن..».

فقاطعها علي، قائلاً:

في المدينة لم يكن لدينا الوقت لكثرة أشغالنا، وتعدد الأماكن التي نرتادهـا، أما هنا فلدينا متسع من الوقت، ولكن ماذا عسانا نفعل؟!... أشهر عديدة مرت، ولم أستطع زحزحة ذلك الإمام عن مكانه، وعجزت عـن إيجاد حل لمشكلة صلاة الفجر حتـى الآن، والتلاميذ الأبرياء في

المدرســة يضيعون أمام عيني، ولم أستطــع فعل شيء، وبسبب كل هذا ضميــري يعذبني وضيق صــدري يشتد علي، فلماذا أبقــى؟!... ليضيع عمرنا كله سدى؟!!..».

كانــت الزوجة تشعر بالضيق نفسه، لكنها لم تكف عن إقناع نفسها بالصبــر مــن أجل تحقيق تلك الآمال الجميلــة، فلما حدثها زوجها عن آلامه تفهمته ولم تجد بدًّا من الصمت واثقة مما يقرره.

أوشك العام الدراسي على الانقضاء، وانتشر في القرية خبر مرض الإمــام الذي عاجلــه الموت بعد أيام قليلة، وفوجــئ علي بأهالي البلدة يجلســون إليــه بعد صلاة العشــاء من أحــد الأيام، وقال أحــد الشيوخ بابتسامة مشرقة:

«اتفقنــا جميعًا علــى جعلك إمامًــا لقريتنا خلفًا للمرحــوم، فماذا تقول؟».

همّ بالكلام معترضًا، فقال المؤذن والفرحة تتلألأ في عينيه:

«ســأؤذن اليوم لصلاة الفجر، وستكون أول مــن يقيمها بعد أشهر طويلة من النوم في أحضان الجهل والظلم».

أمســك علي لسانه، ومنع نفسه من إخبارهم برحيله، وقال يحدث نفسه:

«كيــف أقتــل هــذا الأمــل الجديــد في حيــاتهم، وأنا ألمس فرحتهم وسعادتهم؟!..».

في صباح اليوم المقبل أمّ عليّ الناس في صلاة الفجر، وشعر بطعم الحياة يعود إليه، وازدادت فرحته حين صافحه المصلون، قائلين:

«إننا سعداء بك إمامًا لنا ومعلمًا لأبنائنا».

لم يكن علي يحلم يومًا أن يكون إمامًا، لكن ثقة الناس به ملأته قوة ويقينًا، فشمر عن ساعديه، ومضى يجاهد بكل طاقته، محاولاً ما استطاع أن يكون كالغيث أينما وقع نفع.



أمسية عائليّة

دخلت البيت بعد يوم متعب، فاستقبلتني رائحة القهوة وهي تجول في الفضاء تبعث نشوة غريبة في النفس، وتوجهت مباشرة إلى المطبخ لأجد أمي قد أعدت الصينية وتنتظر قدومي. جلست قربها أمام المائدة وشعرت بسعادة غامرة، وأنا أرقبها تصب لي فنجانًا من القهوة، ولذة كبيرة وأنا أرتشفها على مهل، وأستمع إلى أحاديثها، فنسيت ما كان في يومي، وسبحت في أجواء هذه الجلسة الحميمة مع أحب الناس إلى قلبي وأقربهم إلى نفسي وأعلمهم – بين الخلق كلهم – بما يجول في أعماقي الدفينة.

وأمعنت النظر إلى ملامحها، إنها امرأة جاوزت الستين بقليل، لا تزال تحتفظ بحيوتها برغم التجاعيد التي ظهرت في مواضع متفرقة من وجهها والشيب الذي غزا شعرها. نظرت في عينيها، فإذا بهما نبع لا ينضب، ونور لا يخفت، ودفء لا يبرد!!.

وأعجب من سذاجة أمي، وكأنها طفلة لم يتغير منها إلا سنوات بقائها على الأرض، وما شهدته من أحداث، في حين بقي قلبها ينبض نبضات الطفولة البريئة، ربما هو شأن كل أم في الدنيا لعظم الحب الذي تحمله في صدرها. لا أذكر أمي إلا وهي في البيت تطبخ وتغسل وتنظف من أجلنا نحن أطفالها، لقد باعت عمرها؛ لتشتري راحتنا عن

طيب خاطر ورضى كامل، وما أسعدها حين ترانا سعداء!!... دخل أخي «عــادل» ذو الثمانية عشر ربيعًا، صفق الباب وراءه، وأقبل بوجه متجهم كأنه يحمل هموم الدنيا على كتفيه، قالت أمي بحنو كبير:

«ما بك؟!... تبدو غاضباً..».

فقال بحنق شديد:

«لا شيء..».

«أتريد كوبًا من الحليب؟».

«لا أريد..».

وصمت كأنه بركان على وشك الانفجار، ولم تطق أمي أن تراه على هذه الحال، فقالت:

«لمــاذا لا تحدثنــي عمــا بــك، إننــي أمــك أتخفــي عني أمــورًا لا أعلمها؟!..».

صرخ في وجهها، قائلاً:

«اتركيني وشأني ولا تسأليني عما بي..».

وخــرج كما دخل لا يطيق نفسه، وآلمتنــي أمي، وهي تتبعه بنظرات حزينة، وتقول:

«لا أدري مــاذا جــرى لإخوتــك؟!... إنهــم يتغيرون بشــكل مفاجئ ومخيف، لم أعد أفهمهم، ولا أفهم ما يريدون».

فقلت لها أطمئنها:

«ليســت هـي حال إخوتي فقط، بل حال جيل اليوم، حيث لا يعرفون ما يـريـدونـه!!..».

وخــرج «فؤاد» ذو الثلاثيــن ربيعًا من غرفته يتثــاءب ويتمطى، فهو يقضي نصف يومه في النوم والنصف الآخر يشاهد ما يعرض في مختلف قنــوات (التليفزيــون) وإن سئم من الاثنين خرج ينضــم إلى أصدقائه فــي المقاهي يعيدون نفس كلمات التذمر والشكوى والملل، وربما جابوا شوارع المدينة كلها جيئة وذهابًا، فهو –كغيره من أصحابه– لم يستطع الحصــول على عمل برغم أنه يحمل شهادة جامعية، وما بذله من جهد لم يثمر شيئًا غير بقائه في قائمة البطالين.

انضم إلى مائدتنا وأخذ يحتسي فنجانًا من القهوة، فسألته بمرارة:

«أليس هناك من جديد؟».

فقال ضاحكاً:

«لا جديد يذكر، ولا قديم يستحق الذكر».

فقالت أمي:

«توكــل على الله يــا بني، ولا تتوقف عن السعــي، وسيأتي الفـرج بإذن الله».

«السعي؟!... إنك تعرفين جيدًا أني لم أترك مكانًا إلا ووضعت فيه ملفًا، ولكن دون جدوى».

فقالت تترجاه:

«حاول مـرة أخرى، لقد مضت ست سنوات على تخرجك، ولا عمل لديك، حتى مصروفك اليومي تأخذه من والدك، فمتى تعمل وتتزوج وتفتح بيتًا؟!!!..».

فقال، وابتسامة ساخرة على شفتيه:

«مـا عساي أفعل؟! ظروف الحياة تجبرنـا على الزواج، ونحن على أعتاب الأربعين!!..».

فأكملت ضاحكة:

«والفتاة بعد سن الثلاثين... إن وجدت من يتزوجها!!!..».

دخـل أخـي الأكبر «جمـال» وآثـار (الطبشور) علـى وجهه، يعمل مدرسًا منذ سنوات ولم يتزوج إلا بعد أن قارب الأربعين، انتظر طويلاً؛ عله يحصل على سكن خاص، فلما يئس تزوج وأقام معنا في انتظار أن يجد بيتًا يستأجره، فنحن عائلـة كبيرة والكثافة السكانية ارتفعت منذ زواجه وإنجابه لطفلين.

جلس معنا يقاسمنا جلستنا، كان يبدو مرهقًا حزينًا شاحب الوجه، ولم يعد «جمال» المرح الذي لا يتوقف عن الضحك، أصبح جديًّا وزادته المشكلات وقارًا، كما أنبتت المسؤولية شعيرات بيضًا انتشرت بسرعة اللهب بين شعره الأسود. سألته أمي:

«هل ستمكث زوجتك طويلاً عند أهلها»؟!

فرد بعبوس:

«بضعة أيام..».

«ولماذا أنت حزين؟!..».

«بل قولي: لِمَ لا أحزن؟!... المطالب كثيرة وما أتقاضاه من أجر لا يكفي، ولا يمكنني ادخار دينار واحد، بل على العكس الديون تثقل كاهلي ومسؤولية الأطفال تؤرقني ويتملكني الهلع كلما فكرت في المستقبل».

ربتت أمي على كتفه، وقالت:

«اصبر يا بني، وسيأتي الفرج بإذن الله».

فثارت ثورته، وقال غاضبًا:

«تعتقدين الأمر سهلاً... إنني لا أستطيع الصبر، بل أكاد أجن..».

وصمت يفكر، ثم واصل قائلاً:

«ليتني لم أتزوج، ولم أنجب أطفالاً يخنقون أنفاسي بمسؤولياتهم الثقيلة».

لم نستطع التخفيف عنه، وهو يشكو دومًا من فاقته، ولا يكف عن القول: إن أجر التعليم لا يحيي ولا يميت!!...

عاد عادل وتوجه مباشرة إلى غرفته، حيث وصلنا صوت المسجل يصدح بموسيقى غربية صاخبة، ذهب إليه فؤاد، وطلب منه أن ينقص الصوت، لكنه أبى، وأوشكا أن يتشاجرا لولا تدخل أمي بغلق الراديو

وإخراجهم من الغرفة، وبقي عادل يرغي ويزبد كأنه الريح العاصفة، ثم خرج مرة أخرى، فعمّ البيت هدوء غريب.

سألتني أمي:

«ألا تعرفين ما به؟!..».

فقلت:

«إنها المراهقة!!..».

«المراهقة!!... وما هي؟!..».

«مرحلة من العمر يمرّ بها الفتى يكون فيها مرهف الإحساس، متقلب المزاج ثائر العواطف، كثير المطالب، سريع الغضب..».

فقاطعتني، قائلة:

«مثل عادل؟!..».

«نعم... هذا أوان المراهقة، منعطف خطير بين طفولة ذاهبة ورجولة قادمة، لذلك لا بد من اللين في المعاملة ومحاولة تفهمه؛ حتى تمر بسلام..».

أرهفت أمي السمع تطلب مزيدًا عن هذه المراهقة التي لم تسمع عنها من قبل، فلما انتهيت من الشرح قالت، وهي لا تزال مشدوهة:

«ولماذا لم نعرف المراهقة نحن؟!... ألم نكن بشرًا مثلكم؟!..».

وبينما أخذت أستجمع ذكائي لإجابتها أكملت، قائلة:

«كنــا نعيش حياة بسيطــة وسهلة بمطالب يسيــرة، وبرغم أننا كنا نقيــم في بيوت صغيرة ونرتدي لباسًــا ساذجًا، ونأكل ما يسكت جوعنا إلا أننــا كنا سعــداء حقًّا في طفولتنا وشبابنــا، وعندما تزوجنا تحملنا مسؤولية تربية أطفالنا بصدر رحب، ولم نضق بهم برغم فقرنا... أما الآن فالأعزب كالمتــزوج، والصغير كالكبير، والعامل كالعاطل، والفتى كالفتاة، كلهم يشتكون ويتذمرون!!.. يا لغرابة هذا الزمان وأهله!!..».

وبينمــا نحن جالسون، دخلت أختــي الجامعية «هند» تتأبط كتبها، ألقتها على الأريكة، ثم أتبعتها بجسدها النحيل، وقالت:

«أشم رائحة قهوة لذيذة، ألا تصبون لي فنجانًا منها؟».

هممت بالنهوض فسبقتني أمي، وأسرعت بتحضير أخرى وضعتها أمامها، وهي تقول مبتسمة:

«كيف حال الدراسة اليوم؟..».

ردت، وهي تداعب شعرها الطويل بأناملها الرقيقة:

«لم ندرس اليوم، الأساتذة في إضراب».

فحدجتها أمي بنظرة غاضبة، وقالت:

«وأين كنت طوال اليوم؟!... لماذا لم تعودي؛ لتساعديني في أعمال البيت الكثيرة؟!..».

لم تأبه هند لكلامها، وقالت وهي ترتشف قهوتها:

«قضيــت اليــوم كله مــع صديقاتــي فــي المكتبة نحضــر البحوث، فالامتحانات على الأبواب».

نظـرت إلــى أختي، وكأننــي آراها لأول مرة... هــي تبذل كل شيء لإظهار جمالها خاصة بعد دخولها الجامعة، فإذا ناقشها أحد في الأمر قالت:

«هكـذا ترتدي بنــات اليوم في الجامعــة ولا أريد أن أبـدو سخيفة وريفية بينهن!!..».

فـإذا سألناها هل الجامعة للعلم والتعلـم أم لأشياء أخرى؟! ردت بجرأة:

«هي للعلم طبعًا، لكنها أيضًا للأشياء الأخرى!!..».

قلت لها، وأنا لا أرفع بصري عنها:

«إنــه عامك الأخير بالجامعــة وأرى دخولك إليهــا كخروجك منها لم يضــف شيئًا لحياتك ســوى الاهتمام المبالغ بزيـك وهندامك، أما عقلـك فقـد توقف عن التفكيـر منذ أمـد... ألم يئـن الأوان لتحاسبي نفسك؟!!..».

فقالت، وهي لا تزال تعبث بشعرها الطويل:

«سأحاسب نفسي، وفي هذا العام بالذات!!!..».

ارتسمــت على وجهي ابتسامة الفرح، لكنهــا تضاءلت حين أكملت تقول:

«إذا لم أخرج بشهادة جامعية وزوج وسيم!!!..».

وضحكت لخيبة أملي بجوابها، ثم أردفت:

«هــذا هو القانون المعمول به في الجامعة عند أغلب الطالبات وأنا أحرص منهن على تطبيقه!!..».

في هذه الأثناء دخلت أختي «سعاد» و«حياة» تحملان «أيمن» الصغير، جلستا على أقرب أريكة، ولم تصبر أمي، فبادرتهما بالسؤال:

«ماذا حدث بالمحكمة؟!... هل جد جديد؟!..».

فقالت حياة، وهي تمسح العرق المتصبب على جبينها:

«أجبرتــه المحكمة على دفع نفقة الطفل وطالبتــه بدفع مبلغ مالي جزاء تأخره في القيام بواجبه..».

وصمتت، ثم أضافت تقول:

«الجبــان الحقيــر، اعتقد أنــه سيطلقني، ويبدأ حياتــه من جديد، متناسيًا أن له ابنًا معي..».

فقالت هند معقبة:

«بالطبــع، يجــب أن ينســى ابنــه مــادام قد عــاود الــزواج ويعيش سعيدًا».

اختفــت أمــي، ثم ظهــرت تحمــل إبريق القهــوة في يدهــا، وقالت مبتسمة:

«الحمد لله أن حكمت المحكمة لصالحك، فنحن لا نطلب منه أكثر من أن يقوم بواجبه».

فقالت حياة غاضبة:

«يـا له من واجب يسير، أن يدفع دنانير قليلة لا تكفي لغذاء الطفل، فكيـف بلباسه ودوائه؟!... وماذا عن تربيتـه والاعتناء به، كل هذا يقع على كاهلي أنا وحدي، أما هو فهناك ينعم بزوجته الجديدة..».

وخرجـت مـن الغرفة تبكي حظهـا التعيس، فغشـي الغرفة صمت رهيـب، قطعـه صـوت أيمن وهـو يبكي، إذ افتقـد أمـه، فحملته جدته وأخذت تلاعبه وتناغيه حتى سكت عن البكاء، وسكن إليها يبغي النوم، تنهدت سعاد بصوت مسموع، فقالت أمي:

«وماذا عنك أنت؟!... هيا أفرغي ما بصدرك..».

قالت سعاد دون مقدمات:

«قضيـت معظـم النهـار أبحـث عـن عمل فـي مختلـف الشركات والإدارات بـلا فائدة، لقد سئمت المكوث في البيت والعمل طوال اليوم كخادمة!!..».

همت أمي بالرد عليها، فأسرعت هند تقول باستهزاء:

«إذا كان فؤاد بشهادته الجامعية لم يجد عملاً حتى الآن، فما بالك أنت ولم تقطعي في التعليم إلا شوطاً قصيرًا..».

رمقتها سعاد بنظرات غاضبة، وتبادلتا كلمات جارحة، وأوشكتا أن تتشاجرا لولا تدخل أمي التي قالت توبخ سعاد:

«لا أدري لماذا تعدّين نفسك خادمة، حين تساعدينني في أعمال البيت؟... ولا أفهم لِمَ كل هذا الحرص على العمل خارج المنزل؟!!..».

فاعترضت سعاد، صارخة:

«ومن يشتري لي ما أحتاجه؟!... أبي براتبه الضئيل الذي لا يسد احتياجات البيت؟، أم أخي العاجز عن إعالة أسرته الصغيرة؟!»..

بعد تناول طعام العشاء، جلست أمي بجانب أبي، وكعادتها بدأت تنقل له هموم إخوتي الكثيرة بتفاصيلها المثيرة، كان مشغولاً بمتابعة نشرة الأخبار، فلما أتت على نهايتها نهض دون أن ينبس بكلمة، فلما أمسكت بيده محاولة إبقاءه لمناقشة أمر أولاده، دفعها بقوة قائلاً:

«دعيني أذهب للنوم، فأنا متعب، ولا أقوى على الكلام، اتركيني وشأني..».

ودخل غرفته، وأغلق الباب وراءه، ولحظات فقط بدأ شخيره يخترق الجدران معلنًا عن نومه!!!... أوى كل فرد من أفراد أسرتي إلى مخدعه، مستسلمًا لأفكاره وهمومه، بينما بقيت أمي في غرفة الاستقبال تنظر إلى التلفاز ولا ترى شيئًا، كان ذهنها مشغولاً بما آل إليه أطفالها الصغار. فاجأتها بمقدمي، جلست بقربها أمعن النظر في عينيها وسط هدوء الليل وسكونه. همست، والدمع يتلألأ في عينيها:

«ظننت أنني سأرتاح عندما يكبر إخوتك، لكنني مخطئة، فمع كبرهم ازدادت همومهم وتعقدت مشكلاتهم، ولا أعتقدني سأرتاح من عبئهم».

فقلت أداعب شعرها الذي خضبته بالحناء؛ لإخفاء بياضه:

«لست وحدك من يعاني، بل كل أمهات الدنيا... وبيتنا الصغير صورة لما يتفاعل في المجتمع الكبير».

وقرأت في عينيها قلقًا واضطرابًا، فقلت أمازحها:

«لا تحملي همًّا أمي... فلكل مشكل حل، فقط لا تحرمينا حبك وحنانك، ولا تنسينا في دعائك؛ عسى أن يحفظنا الله ويجعل من بعد عسر يسرًا..».

ضمتني إلى صدرها، وقالت مبتسمة ابتسامتها الساحرة:

«أنت نور عيني في هذا البيت، ولا أدري ماذا سيحصل لي إذا تركتني، كلهم يتذمرون ويشتكون إلا أنت، وحدك تستمعين إلي وتشعرينني بالأمان».

ولم أتركها حتى ذهبت لمخدعها مطمئنة، فلما تيقنت من نومها، مكثت بمفردي أفكر في مشكلات بيتنا التي لا تنتهي، ولم أتحمل ضغط الأيام وقلق أمي المتزايد، فأطلقت العنان لدموعي تهبط على خدي في صمت.

مات .. لم يمت؟!

انتشر الخبر بين الأهل والأقارب انتشار النار في الهشيم، وتناقلت الألسن النبأ تقول:

«أحقًّا مات الحاج عيسى؟!..».

وما هي إلا بضع ساعات حتى كان منزل الحاج عيسى يغص بالزائرين لتعزية العائلة في فقيدهم، وكانت النساء أكثر عددًا من الرجال، جلسن في غرفة فسيحة يهيئن أعينهن؛ لتدرّ بعض قطرات الدمع، ويلبسن أوجههن قناع الحزن والألم لفقد الحاج المرحوم...

في غرفة مجاورة جلست مقربات الفقيد يحضرن طعام «الكسكسي» في قصعة كبيرة جعلت خصيصاً للأفراح والأتراح على حد سواء.

في غرفة ثالثة، كان جسد الحاج عيسى ممددًا تحت غطاء أبيض، وبالقرب منه جلس أكابر العائلة من الرجال يتهامسون في أحاديث شتى وينتظرون قدوم الطبيب؛ ليؤكد الوفاة، فيبادروا بغسل الميت وتجهيزه؛ ليصلى عليه بعد أقرب صلاة.

تعالت أصوات النساء بالبكاء والعويل، وهي تتعالى كلما دخلت قريبات المرحوم أو بناته المتزوجات في بقاع شتى، واختلطت

بتلـك الدار أصـوات متفرقة تندب الميت وتذكر مآثـره وتعدد خصاله الحميدة، وما زالت الأمور كذلك حتى دخل الطبيب وتوجه مباشرة إلى المرحوم، ووسط وجوم الحاضرين أمام آية الموت العظيمة، كشف عن وجه الحـاج عيسى النـاصـع البياض، الحافل بالتجاعيـد، ومكث بضع دقائـق يفحصه، ثم قال لجميـع الرجال وعلامـات الاستغراب، بادية على وجهه:

«لم أرَ شيئًا كهذا في حياتي!!..».

سأل أحد أبناء الحاج:

«ما الذي حدث يا دكتور؟!..».

«لم أرَ بيتًا اجتمع فيه المعزون يبكون رجلاً... رجلاً لم يمت بعد!!..».

صعق الجميع لسماع هذا الخبر، ولم يصبر أحدهم أن قال:

«هل تعني أن الشيخ حتى الآن لم يمت؟!!..».

فقال الطبيب، مؤكدًا:

«نعـم... إنه في غيبوبة فقط، وقـد يصحو الآن، وربما لن يصحو إلا بعد أيام».

دهش أفراد العائلة، بينما قال كبيرهم، وهو شيخ جاوز الثمانين:

«كيـف لم يمت وكنت إلى جـواره لحظة أسلم الـروح، وأنا من أكد وفاته؟!... أتكذبني يا حضرة الطبيب؟!..».

فقال الطبيب يهدئه، وقد رأى امتقاع لونه ورعشة يديه المتزايدة:

«معاذ اللّه أن أكذبك أيها الشيخ، أنت لم تخطئ في تقديرك، فالغيبوبة تشبه الموت كثيرًا، بل قد لا تحدث غيبوبة إلا ويلحقها موت مؤكد».

«لكنك تقول: إنه قد يصحو». قالها شخص آخر.

«نعم، احتمال وارد». رد الطبيب.

وعمّ الغرفة سكون رهيب لا يقطعه غير أصوات النساء وهن مازلن ينتحبن!!...

تمتم الشيخ الكبير، كأنه يحدث نفسه:

«حضرت – في حياتي المديدة – وفاة عشرات الأشخاص، ولم أخطئ يومًا في تأكيد وفاة شخص ما، ويأتي اليوم هذا الطبيب يقول غير ما قلته... كل شيء تغير في هذا الزمن، ولم نعد نتفق حتى على رجل ممدد أمامنا إن كان ميتًا أم لا!!!..»..

خرج الدكتور بعدما أكد أن الحاج عيسى لم يمت، ومن ثم لا ينبغي فعل أي شيء، والانتظار حتى يصحو من غيبوبته، وأزيح الغطاء عن وجه الميت الحي، وبقي الجميع ينظرون إليه مذهولين، وفي أعماق بعضهم خوف دفين تجاه هذا الشيخ المتشبث بالحياة برغم أعوامه التسعين!!..

وتوجه الابن الأكبر مفزوعًا إلى النسوة، وصرخ في أوجههن آمرًا:

«كفى بكاء وعويلاً... أبي لم يمت... إنه لا يزال على قيد الحياة!!..».

ولحظة واحدة كانت كافية لتصمت كل النساء، وتتوقف أعينهن عن ذرف الدموع، وبقين صامتات كأنهن لم يستوعبن كلامه، فلما استوعبنه بدأت سلسلة التساؤلات والاستفسارات، ولم يقل الابن غير ما سمعه من الطبيب، ثم انصرف معرضًا عن ثرثرتهن ودهشتهن.

لم تكن هذه الحادثة لتصرف النساء عن مجلسهن، بل بقين يتجاذبن أطراف الحديث، ويتبادلن ما جدّ من أخبارهن، وكأنهن لم يلتقين ببعضهن منذ أمد بعيد، واعتبرن لقاءهن فرصة لا تعوض، وما زلن كذلك حتى صفت الموائد ووضع الطعام، فتناولنه بشراهة وهن يضحكن ويقهقهن، ثم رفعت صحائف الطعام لتحل محلها أقداح القهوة، فاحتسينها على مهل، وأفواههن لا تتوقف عن الكلام، ولم يغادرن المنزل إلا في المساء دون أن يكلفن أنفسهن عناء التأكد من حياة الشيخ أو موته!!!...

طالت غيبوبة الشيخ، فقلق أهله للأمر، وقاموا باستدعاء طبيب آخر، وبعد فحصه قال مؤكدًا:

«لا يزال على قيد الحياة... دعوه، فقد يفيق بين لحظة وأخرى!!..».

مرت أيام عسيرة كان الأقارب لا يتوقفون عن الزيارة للسؤال عن حال الحاج، وجاء يوم انفض فيه الناس عن غرفته وبقي وحيدًا، وفجأة فتح عينيه ونظر حوله، فإذا الظلمة تغشي المكان، وإذا هو ممدد

كالأمــوات، وأرهف السمع، فإذا أصوات تصله من الغرف المجاورة لم يتبينها، رمــى اللحاف الأبيض من فوق جســده النحيل ونهض مستندًا إلى الحائط حتى وقف على قدميه الواهنتين، وشعر بدوار كاد يسقطه أرضًا، لكنه التصق ببعض الأثاث حتى استعاد توازنه، وبخطوات بطيئة أشبــه بتلك التــي يخطوها الطفل حيــن يحاول المشــي لأول مرة وصل الغرفــة التي تنبعث منها الأصوات، وأمام بابهــا وقف بقامته المديدة، ووجهــه الأصفر، ولحيته البيضاء القصيــرة، ورأسه الأشيب بشعيراته القليلــة المتفرقة... وقعت عليه عين زوجته الحاجة «فطيمة» فصرخت صرخة انتبــه لها الحضور، وسقطت مغشيًّا عليها، وهي تشير بإصبعها إلى البــاب!!!... توسط الحاج عيسى مجلــس ضيوفه، وضحك الجميع حيــن أفاقت الحاجة من إغمائهــا، وبعد أن سمع من أهله ما حدث قال يداعب لحيته البيضاء القصيرة:

«اعتقدتــم أنني مــت وأقمتم علــى رأســي مأتمًا وعويــلاً!!... لكن الحمــد لله أن مدّ فــي عمري؛ لأعيش معكم أيامًــا أخر، فما شبعت من الدنيا بعد، وكأنني لم أقِم فيها غير بضع ساعات!!!..».

اجتمــع حولــه أولاده وأحفاده، وقضــوا رفقته وقتًــا ممتعًا يبادلونه أحاديــث ممزوجــة بالضحــك والمزاح، وبعــد أن اطمأنــوا على صحته ولا حظــوا مرحه ونشاطه تفرقوا عنه وودعوه وهم يوقنون أنه قد يعيش أشهرًا وربما أعوامًا أخرى.

مــرت أسابيع عديدة، نسي فيها النــاس أمر الحاج، حتى جاء يوم نــادى منادي الموت معلنًا «لقد مــات الحاج عيسى!!..».، وتوافد النــاس إلى بيته معزين باكين، وجاء الطبيب مرة أخرى يعلن للملأ:

«إنه لم يمت بعد!!... بل دخل غيبوبة قد تطول وقد تقصر!!..».

وطالـت مدة الغيبوبـة، ثم نهض الحـاج كالمرة السابقـة متشبثًا بالحياة، يقبل عليها بنهم من لم يعش فيها إلا قليلاً، وتفرق الجمع عنه حين اطمأنوا عليه، وهم يزدادون دهشة لأمره.

مضت أسابيع أخرى بدا فيها الشيخ سعيدًا ونشيطاً لا يشكو مرضًا، واعتقد الناس أنه لن يموت، وفي نفسه كل تلك الرغبة في الحياة.

جـاء يوم عـاودت الغيبوبة زيارتـه، فتركه أهله ممـددًا في غرفته ينتظـرون متـى يفيق، ولـم يحضروا الطبيـب هذه المـرة، وما جدوى حضوره، وقد أصبحوا يعرفون حالته، حتى الشيخ الكبير لم يتقدم منه ليؤكـد غيبوبته، فقـد نفض يده من كل هذا منذ خالفـه الطبيب الرأي وصـدق ليكون هو من المخطئيـن، وفي أرذل العمـر!!... ولم يأتِ أحد لزيارتـه، وبقيـت الغرفة مغلقة لا يرتادهـا أحد سوى زوجتـه أو أولاده يفتقدونه هل أفاق أم لا.

وبـدأت رائحة كريهـة تنبعث من الغرفـة، وسارع الأهـل لإحضار الطبيب، فلما رآه صرخ قائلاً:

«ما هذا الجرم العظيم؟!!... أتتركون رجلاً ميتًا حتى يتعفن؟!..».

فصرخت زوجته:

«أو مات زوجي؟!!..».

فرمقها الطبيب بنظرة غاضبة قائلاً:

«مــات؟!... بل شبع موتًــا!!!... إنه ميت منذ أيــام، وقد بدأ جسمه يتعفن، ويطلق هذه الرائحة الكريهة!!..».

ونظر إلى أولاده، وقال مذكّرًا في أسى:

«كــان عليكم إكـرام والدكم بالإسراع بدفنه... هــذا أدنى حق من حقوقه عليكم».

وتمتم أحد أولاده خجلاً:

«كنا نعتقده في غيبوبة... كالمرات السابقة!!!..».

وسارعوا بغسله وحملوه إلى المسجد؛ ليصلى عليه، ثم بادروا بدفنه في المقبرة، ولم يحضر جنازته غير أولاده، ولم يأتِ للتعزية أحد!!.



عودة قابيل

جلس ثلاثتهم أمام محقق الشرطة منكسي الرؤوس دامعي الأعين، قال المحقق:

«أنــا لا أريــد منكــم ســوى أن تجيبوني علــى سؤال واحــد: من قتل قريبكم الصالح؟!..».

أطرق الجميع ولم يجب أحدهم، فثارت ثورة المحقق، وقال غاضبًا:

«المجــرم واحد منكم، فإما أن يعتــرف أو تحاكموا جميعًا لتأخذوا نصيبكم من العقاب».

رفع الابن الأكبر «يزيد» رأسه وقال بصوت خفيض:

«كيف نقتله وهو ابن عمنا وجارنا، لقد تقاسمنا الحياة منذ صغرنا، فكيف نقتله بهذه الطريقة البشعة؟!!..».

قال المحقق ساخراً:

«ابن عمكم وجاركم؟!... أين هذا الكلام حين خرجتم إلى الشارع نساء ورجــالاً تتقاتلون؟... ومــن أجل ماذا؟... قطعــة أرض صغيرة لا تساوي شيئًا أمام جريمة فظيعة كهذه..».

أجهشت الأم بالبكاء، وقالت:

«لعن الله الأرض والمال، وكل ما يتقاتل الإخوة لأجله، وتسيل بسببه الدماء، من كان يظن أن عائلة واحدة سيكون فيها قاتل ومقتول... ليتني مت قبل أن أرى هذا اليوم الأسود..».

وارتفع نحيبها، فقال المحقق موجهًا إليها أصابع الاتهام:

«ولماذا لم تحاولي منع أبنائك من التشاجر مع أبناء عمومتهم، وخرجت إليهم تساعدينهم على الضرب حتى وصل الأمر إلى القتل؟؟... الآن تبكين؟!... بعد ماذا؟!..».

فقالت صارخة:

«وجدت أبناءهم قد تشابكوا مع أولادي بالفؤوس والحجارة والقضبان الحديدية، فكيف أمنعهم وقد اختلط الحابل بالنابل حتى لم أعد أفرق بين الضارب والمضروب؟!!..».

«لذلك توجهت إلى الصالح، فأغمدت السكين في بطنه بكل قوة فسقط على الأرض ميتًا.. أهذا ما حدث؟؟..».

فقالت باكية:

«أنا لم أقتله... لم أقتله..».

نظر إلى الأخ الأصغر ذي الستة والعشرين ربيعًا، وقال:

«وأنت يا كمال، شهد بعضهم أنك كنت تحمل سكينًا في أثناء احتدام الصدام مع أبناء عمك، وأنك فاجأت صالحًا بعدة ضربات قوية أردته صريعًا ملطخًا في دمائه... هل هذا صحيح؟..».

رد كمال بانفعال شديد:

«كـذب... لم أحمل سكينًا معي، وما دخلت العراك بنية القتل، إنما لألقنهم درسًا لن ينسوه أبدًا كلما فكروا في سرقة أرض ليست لهم..».

فقال المحقق موضحًا:

«لكـن الأرضـ أرضهـم كما فــي محضر المختبــر القضائي، وأنتم أردتم سرقتها!!..».

فصمت الجميع، ولم يتفوهوا بكلمة، فقال المحقق:

«دعونــا مــن الأرضـ الآن، ولنتحدث عــن الجريمة... يبــدو أنكم مصرون على الإنكار؟..».

«حسنًا، ستودعون الحبس الاحتياطي إلى حين استكمال التحقيق، وتأكـدوا أننا عندما نحصل على أداة الجريمة سيتضح كل شيء... هيا انصرفوا..».

لم يكن الخلاف حول الأرض مشكلة جديدة بالنسبة لهذه العائلة أو غيرها من العائلات الأخرى، بل كان موضوعًا ممتد الجذور إلى أجيال سابقــة، ومع كل جيل كان يكتســي حلة جديدة تختلف باختلاف الأفكار والعقليات وتطورات الحياة، بينما بقي الجوهر واحدًا: خلاف يورث في القلوب الحقد والكره، وبركان من الغضب المتوارث لا يطفئه غير إراقة الدماء!!!...

كان الصالــح شابًــا في الثلاثين، وسيم الملامــح، بادي الرجولة، كريــم الأخــلاق، يعمل ممرضــاً بمصحــة القرية، عرف بحســن أدائه لمهنته ومساعدته الودودة للمرضى، لم يأبه يوماً لما بين إخوته وأبناء عمومته من خلاف حول الأرض، وما تدخل فيها بعد أن حاول الإصلاح بينهم وفشل، ليدرك أن عقول الكبار المتحجرة وقلوبهم المتباغضة قد توارثها الصغار، وازدادت تمكينًا منهم.

فــي يــوم من الأيــام، أســرع إليه بعضــ جيرانه، وهــو لا يزال في المصحة، قائلين له:

«أسرع يا صالح، للتفرقة بين إخوتك وأبناء عمك، إنهم يتشاجرون، وقد يقتل بعضهم بعضًا..».

انطلــق صالــح كالسهم إلى المنــزل ببِدْلته البيضــاء، فوجد أفراد العائلتين متشابكين بالأيدي تسيل الدماء من وجوههم، فدخل وسطهم مع زمرة من الجيران، فلم يستطيعوا التفرقة بينهم إلا بعد جهد عظيم، ولم ينــجُ الصالح من ضربات تلقاها على وجهــه فأسالت دمه، وتبادل الطرفان نظرات حاقدة قبل أن يدخلوا منازلهم المتجاورة.

جلــس الصالح أمام عتبة باب بيته يمســح دمه وعرقه، كان شاردًا يفكــر حين خرج يزيد ابن عمه وصديق طفولتــه من داره بعد أن أصلح هندامــه وغسل بقع الدم التي على وجهه، اقترب منه وجلس إلى جانبه دون أن يتفوه بكلمة، وبعد دقائق من الصمت قال يزيد:

«لم أكن أريد أن يتشاجروا، لكن الطاهر أشعل نيران الفتنة وحرّض إخوتــي على الضرب؛ دفاعًا عن حقهــم، وانضممت إليه؛ لأفرق بينهم، لكن إخوتك لم يمهلوني وأشبعوني ضربًا..».

رفع الصالح رأسه، وقال مستغربًا:

«الطاهر؟!... وما دخله بيننا؟!..».

«إنه يتودد إلى إخوتي ويكره إخوتك، ربما لخلاف قديم بينكم، لذلك يستغل هذا الوضع؛ ليزيد الأمر تأزمًا».

«وما عساه يجني مما يفعله؟!..». سأل الصالح، وهو لا يزال على استغرابه.

فقال يزيد متأسفًا:

«هو أيضًا ابن عمنا وله أرض بجوار أرضنا، ربما لديه أطماع أخرى لا يعرفها أحد، فهو رجل خبيث وفاسد القلب والطباع، ولتحقيق مصلحته لا يتردد في فعل أي شيء».

«ألا نستطيع إيقافه عند حده؟..».

«للأسف لا نستطيع، فإخوتي يستشيرونه في كل أمر، بل حتى والداي يعملان برأيه، وبرغم محاولاتي لزجره إلا أنني لم أجنِ غير عداوة الجميع».

كان أبناء العم يسكنون في الشارع نفسه في بيوت متجاورة لم يغادروها أبدًا، تقاسموا منذ صغرهم حلو الحياة ومرها، ورضعوا معًا حليبًا واحدًا وأكلوا رغيفًا واحدًا، كانوا يتشاجرون بين الحين والآخر، لكنهم كانوا متحدين أمام ضربات الزمان والأعداء. ولم تمتلئ قلوبهم حقدًا ولم يعمِ عيونهم الكره والغضب إلا حين دخل بينهم رجال السوء

مـن أقربائهم لغرض فـي أنفسهم، والطاهر من أشدهـم كرهًا لعائلة الصالـح وأكثرهم رغبة في الانتقام منهم؛ لاعتقاده أن كل الأرض التي يمتلكونها ملك له وحده، واستولوا عليها بوثائق مزورة.

ذهب إليه الصالح ذات يوم في محاولة أخيرة للإصلاح، فلما جلس إليه بادره بالحديث قائلاً:

«أعرف أن علاقتك وطيدة بعائلة عمي؛ لذلك جئت أستحلفك باللّه ألا تسهـم في إشعال نيران الخلاف بيننـا، وتساعدني للإصلاح بينهم و...».

فقاطعه الطاهر قائلاً في سخرية:

«تلجـأ لي أنا لمساعدتـك؟!!... يا لسذاجتـك!!... لو كنت تعرفني جيدًا لما قصدتني أصلاً..».

«إننا أهل وجيران، فلماذا تفسد ما نحاول إصلاحه؟!..».

«بل أحاول استرجاع أرضـي التي استوليتهم عليها، وبقيتم سنوات تنعمون بخيراتها..».

«لكنهـا أرضنا ورثناهـا أبًا عن جد وتعرف ذلك جيـدًا، ولدينا كل الوثائـق التي تثبـت ملكيتنا، فلماذا تلح على ادعـاء ما ليس لك وتسعى لأخذ ما ليس من حقك؟!».

فثار غاضبًا، وقال والزبد يتطاير من فمه:

«بـل أرضي وسأسترجعهـا مهما كلفني الأمـر، وسأجعلكم تدفعون ثمن استيلائكم عليها غاليًا».

سأله الصالح بنبرة هادئة:

«إذا كانت مشكلتك معنا، فلماذا تتدخل بيننا وبين أبناء عمنا؟!..».

فقال الطاهر، يتصنع الهدوء:

«لن أحاربكم على جبهة واحدة، بل سأثير ضدكم كل أبناء عمومتنا... سنحاصركم من كل مكان، حتى تعترفوا بما ليس لكم».

«بل قل، حتى نتنازل لكم عن كل أملاكنا؛ تفاديًا لمؤامراتكم الدنيئة، ودفعًا لحصاركم المقيت؟

فرد بخبث وابتسامة ماكرة على شفتيه:

«هذا ما أريده بالضبط... ولن أتأخر عن فعل أي شيء يوصلني إلى هدفي».

هدأت الأوضاع أشهرًا عديدة، وعاد إلى ذلك الشارع أمن ظاهر يهدده ما تنطوي عليه النفوس وتفضحه العيون، وانطلق الطاهر في الخفاء كالشيطان المريد يشعل جذوة الخلاف، حين شعر أنها توشك على الانطفاء، وما هي إلا أيام قلائل حتى أثمرت جهوده لهيبًا مستعرًا أحرق كل أمل في الصلح وجعل الإخوة يتقاتلون من جديد.

لم يصل التحقيق بشأن موت الصالح إلى نتيجة، وبرغم حصول الشرطة على أداة الجريمة – وهي سكين كبيرة وجدت ملقاة فوق سطح المنزل – إلا أن ذلك لم يفد في شيء أمام إصرار المتهمين

الثلاثة على الإنكار. واستغرقت المحاكمة أشهرًا طويلة، وكانت أقوال الشهود في أغلبها تؤكد تورط يزيد حينًا وكمال حينًا آخر، في حين أكد بعضهم أن تشابك أفـراد العائلتين وسرعة الأحداث مغرب ذلك اليوم جعل من الصعب التعرف على القاتل.

في اليوم الأخير من المحاكمة، نطق القاضي بالحكم النهائي لهذه القضية المأساوية، فحكم على يزيد بعشرين سنة سجنًا وعلى أخيه كمال بعشـر سنوات وتـم تبرئة الأم وإطـلاق سراحها. وأوشـك ملف القضية أن يغلـق وترفـع الجلسة، حين دوى بالغرفة صوت امـرأة اخترقت جموع الحاضرين وطلبت المثول أمام عدالة المحكمة والسماح لها بالكلام:

وبعينيـن دامعتين، وصـوت مبحوح بدأت المـرأة – وهي فتاة دون العشرين – تسرد ما حدث:

«كنت يومها فوق سطح منزلنا أنشر الغسيل، وعندما انتهيت وقفت كعادتي أنظر من فوق إلى الأطفال وهم يعلبون وإلى بعض المارة، بحيث أرى ولا يراني أحد، فسمعت الطاهر يقول لكمال بصوت مسموع:

«كيـف تترك حقلك يذهب سـدى؟!... لقد حفروا اليـوم بئرًا على أرضـك وينوون إنشـاء مزرعة تدر عليهم مالاً وفيـرًا، ألست رجلاً؟ ألا تدافع عن حقك؟!..»».

ومـا زال به حتى غَلَى الدم فـي عروقه، فلما رأى كمال زهيرًا – أخا الصالح الأكبـر – مقبلاً انقض عليه كالوحش الكاسر، وعلى صراخهما خرج رجال العائلتين واشتبك كل واحد بغريمه يبغي الفتك به، ثم لحقت بهم النساء يصرخن، تحاول كل واحدة منهن دفع الضربات عن زوجها أو

أبيهــا أو أخيها، ولم أعد أرى سوى قضبان حديدية وهراوات تسقط على الرؤوســ فتدميها، ومن آخر الشارع ظهــر الصالح يجري نحو الجمعين محــاولاً تهدئتهم وتفريقهم، لكن أحدًا لم يأبه به، فانسحب من المعركة وجلســ غير بعيد عنهم ينظر إليه بأســف وأسى. وصرخ يزيد حين تلقى ضربة قوية من زهير، وأوشك أن يسقط، فهرع إليه الصالح يمسكه..».

صمتت الفتاة تستعيد ذكرى تلك الأحداث، ثم واصلت تقول:

«فــي هذه الآونــة بالذات رأيت بــأم عيني الطاهر يقبــل وفي يمناه سكين كبيرة متوجهًا إلى زهير يبغي قتله، لكن هذا الأخير سقط يتلوى علــى إثر ضربة تلقاها مــن أحدهم في مؤخرة رأســه، وبسرعة كبيرة أغمــد الطاهر سكينه في بطــن الصالح مرات عديــدة وعلى غفلة من أعين الآخرين، ثم أسرع بالاختفاء والسكين في يده تقطر دمًا..».

أجهشت الفتاة بالبكاء، ثم أكملت بصوت تخنقه العبرات:

«لــن أنسى ما حييت اللحظة التي وضع فيها الصالح كلتا يديه على بطنــه، مستشعرًا حرارة الدم المنبثــق من أحشــائه وهــول المفاجأة مرتسم على وجهه، كان قلبي يخفق بشدة، وأنا أراه يتألم دون أن يصدر منــه أي صوت، وبقي واقفًا مشدوهًــا لحظات قليلة وأهله حوله ما زالوا يتعاركــون، وفجأة سقط على الأرض محدثًا صوتًا قويًّا جعل كل الأنظار تتجــه إليه، وتفرق المشتبكون مشكلين حلقة دائرية كان جسد الصالح ممــددًا يتوسطهــا... كانت الشمس قد غابت وبــدأ الظلام يحل، لذلك ظــن الجميــع أنه أغمي عليه، فحملــوه إلى الداخل، حيــث فوجئوا ببقع الدم تلطخ سترته!!...

حمل بسرعة إلى المصحة، متبوعًا بأمه وأخواته يندبن ويصرخن، وهناك أعلنوا موته المفاجئ».

مسحت الفتاة دموعها، وقبل أن تنسحب قالت:

«أقسم لك سيدي، إنها الحقيقة، يزيد وكمال لم يقتلا الصالح، فهما في أعماقهما يحبانه برغم كل الخلافات، إنما شياطين الإنس هي التي تنفث سمومها؛ ليتقاتل الأشقاء..».

سألها القاضي:

«ولماذا لم تدلِ بشهادتك قبل اليوم؟!..».

«كنت خائفة جداًّ، وخاصة أن هناك من رأوا ما حدث، ولكنهم خافوا، فلم يقولوا الحقيقة برغم أنهم استدعوا للشهادة، فكنت خائفة مثلهم من المشكلات التي قد تلاحقني».

«وما الذي دفعك إلى الكلام الآن؟».

قالت الفتاة، وهي تشعر ببعض الخجل:

«بقيت أكتم الأمر في صدري طوال الأشهر الأخيرة، وتعذبت بسبب ذلك كثيرًا، وأخيراً قررت مفاتحة عائلتي في الأمر لمعرفة رأيهم، فشجعوني على قول الحقيقة كاملة كما رأيتها؛ لينال المذنب الحقيقي عقابه بدل هذين البريئين..».

وفكر القاضي مليًّا ثم قال:

«هل تستطيعين ذكر أسماء الأشخاص الذين رأوا ما رأيت؟».

«بالطبـع، وأنــا علــى يقين بــأن الطاهــر سيعتــرف بجريمتــه إذا حاصرناه بشهادتنا جميعًا».

وهذا ما كان فعلاً، اعترف الطاهر أنه نوى قتل زهير؛ لشدة بغضه له، فلما اختفى من أمامه فجأة قتل صالحًا برغم أنه لا يضمر له حقدًا شخصيًّا، إنما لكونه ابن أعدائه كان كافيًا لأن يقتله!!...

وأطلــق ســراح الأخوين البريئيــن، ونال الطاهر فــي الحياة الدنيا عقوبة السجن مدى الحياة.

وبقي ذلــك الشارع يرتدي السواد، ويذكّــر المارين به أن قابيل لم يمــت، وأن روحــه لا تزال تنتقل بين أرواح البشــر تزرع الحقد وتحصد الموت.



ويورق الأمل

كان التحاقي بالجامعة أكبر وأهم حدث في حياتي كلها، فقد كانت حلمًا من أحلامي وهدفًا لم أتوانَ عن بذل أي شيء لكي أناله. فهي لم تكن بالنسبة لي مرحلة دراسية تبدأ، ثم تنتهي لتمنحني الشهادة العالية، ولم تكن هذه في حد ذاتها هدفي الوحيد من دخول الجامعة، بل لم أكن أراها إلا أمرًا ضئيلاً أمام ما تحمله نفسي من أحلام، وما يخفيه صدري من طموحات.

كنت أرى الجامعة الجنة الفيحاء والروضة الغناء التي تهفو إليها كل نفس عظيمة تأبى إلا أن تكون بين العظماء، هي حياة جديدة سأحياها وعالم جديد سألج بابه، فيها سأتعلم العلم وأتعلم الحياة أيضًا، في رحابها ستصقل شخصيتي ويتسع أفقي وينضج فكري وتعلو همتي، وأصبح بعد خروجي منها شخصًا آخر غير الذي كان قبل دخولها... لقد عاهدت نفسي على أن أستغل كل يوم من أيامي هناك وكل عام في السعي الدؤوب لا أكلُّ ولا أملُّ مستمدة إرادتي من إيماني العميق بأن الجامعة هي أجمل مرحلة في حياتي، وأنها زهرة عمري كله.

دخلت الجامعة بأفكاري هذه، فلا عجب أن قضيت كل يوم من أيامي هناك أنهل من بحر العلم حتى الثمالة كظمآن لا يرتوي أبدًا، فلم

أترك مجلسًا من مجالس العلم إلا وحضرته، وما أقيم معرض أو ملتقى أو ندوة إلا وكنت السباقة لحضورها جميعًا، وما وجدت فرصة للسفر إلا وسافرت بنفس ظمأى لاكتشاف ربوع بلادي الساحرة، وعيناي تتلهفان شوقًا لرؤية ما أبدعته يد الخالق من مناظر على هذه الأرض الرائعة.

مضت السنوات تباعًا، ولم أستفق إلا والشهادة العالية بين يدي، وإذا أنا في قريتي الصغيرة النائية بعيدًا عن الجامعة وعن كل ما يربطني بها.

شعرت بغصة في حلقي وحرقة في قلبي، وأحسست بالدموع تنهمر من عيني وقد مرّ بمخيلتي شريط ذكرياتي بالجامعة، وتذكرت ما كان لي فيها من أحداث.

وضعت رأسي بين راحتي؛ لأخفي دموعي وأكتم أنين نحيبي عندما أدركت أن ذلك ماضٍ ولّى ولن يعود أبدًا، وأن تلك مرحلة من حياتي انتهت إلى الأبد.

دخلت أمي وجلست قربي تمعن النظر إلى وجهي، ثم قالت:

«ما بك سلمى؟!... هل تشكين مرضًا؟».

فقلت أمسح دموعي:

«لا... لست مريضة».

«فلم البكاء إذًا؟!..».

يكفي أن يسألني أحد هذا السؤال ليزداد بكائي، ولم أستطع إيقاف انهمار العبرات، فقالت أمي وقد هالها أمري:

«أرجـوك يا ابنتـي، أخبريني ما بك، ولِـمَ تبكين؟... ألست سعيدة بتخرجك؟!..».

فقلت بصوت مبحوح:

«لـم أكن أريد العـودة إلى قريتي الميتة هذه، مـا عساني أفعل هنا غير أن أنضم لقائمة الأحياء الأموات فيها!!..».

«لكنها قريتـك وهنا بيتك وأهلك، ولا بد أن تعودي إليها، ولو طفت العالم بأسره».

«لم أتوقـع أن أقضي سنوات الدراسة في مدينة عريقة تنتشر فيها المعاهد والمكتبات ودور الثقافة، حيث الحياة تتجدد مع كل يوم جديد لتمنحني السعادة بالسعي لأنهل من بحر العلم والأدب، ثم أعود في آخر المطـاف إلى هذه القرية الميتة، كيـف أعيش بين أهلها الذين اعتادوا البساطـة في الحيـاة، والبساطة في الأهداف والغايـات؟! كيف أقضي أيامي في هذا المكان الذي يشبه المنفى أو القبر؟!..».

غضبت أمي لكلامي، وقالت:

«كيف تقولين هذا عن بلدتك التي هي مسقط رأسك وشهدت أولى صرخاتـك وخطوت عليها أولى خطواتـك؟!. ثم إننا جميعًا نحيط بك، ألا تقدرين كل هذا؟!!..».

فقلت أهدئ من غضبها:

«أقـدر كل هذا أمي، وربما هو عزائـي الوحيد، لكنني تمنيت لو كنا

نقيم بمدينة كبيرة تسع أحلامي وطموحاتي، إنني أشعر هنا بالاختناق، وأخشى أن تموت آمالي في هذه البقعة وتدفن إلى الأبد».

«إن اللّه كريم يا ابنتي، وما دام قدّر لك العودة إلى قريتك بعد طول طواف، فلحكمة لا يعلمها إلا هو، وستدركين حكمة اللّه ذات يوم!!».

كانـت أحلامي وآمالي زادي وعتـادي، تقتات عليها نفسي الظمأى وروحي الحالمة، ولم أكـن أنظر إلى الحياة بمنظار أغلب الناس حولي ممـن يحلمـون بالعثور على عمل يرتزقون منـه، وبيت يسكنونه، وزوجة وأطفال، فإن كبرت أحلامهم، فإنها لا تعدو أن تكون مالاً وفيرًا يكتسبونه ومنزلاً فاخرًا يقيمـون فيه، وسيارة فخمة يقتنونها وغير ذلك من متاع الدنيا الزائل وبهرجها المزيف.

لم أفرح بالشهادة العالية؛ لأنها لم تكن هدفي، وعندما هنأني الناس حولي لأنني انتهيت كنت في أعماقي أوقن أنني الآن فقط بدأت!!..

لم أرضخ للأمر الواقع أو أتقبل الأمور كما هي، بل بذلت كل جهدي لتغيير وضعـي إلا أنني أخفقت في جميع محاولاتي، وكنت كمن يصارع القـدر فيصرعـه، وأسعـى للابتعاد عن قريتـي فيدفعني للعـودة إليها والاستقرار بها.

مكثت بالبيـت أيامـًا وشهورًا، كان الصراع فيها بيني وبين نفسي نـارًا تضطـرم بيـن ضلوعي فتـكاد تهلكني، بيـن رغبتـي الشديدة في مواصلـة السير في طريق العلـم والإبحار في دنيـا الأدب، وبين الواقع المحيـط بي، المحبط لعزمـي، القاتل لآمالي والخانـق لأنفاس روحي الحالمة.

كم كنت أخشى على نفسي – إن بقيت في هذا المحيط – أن تتقلص أحلامــي فأقنع بما قنع به غيري من حياة مملــة رتيبة، وأن أتنازل عن مبادئــي التــي آمنت بهــا، وأتخلى عن العلــم الذي تعلمتــه بالنسيان أو الإهمال أو سلوك مسلك لم يخطر لي على بال.

لكــم خشيــت من الأيام والسنــوات القادمة أن تجعلنــي أجهل بعد علم، وأفقر بعد غنى، وأموت بعد حياة!!...

قضيت مدة من الوقــت أسيرة الماضي الذي لم أستطع أن أنساه، وضحيــة الحاضــر الــذي لا أريد أن أحيــاه، وقد استهواني هــذا الأسر فتناسيــت البحث عن عمل وتمنيت ألا أعثر عليه حتى لا يكبلني بقيوده، واعتقــدت جازمة أن القيام بهــذه الخطوة رضوخ للواقــع الذي أبغضه وقبول للعيش في الحاضر الذي أهرب منه.

لم تدرِ أمي كيف تخرجني من قوقعتي، فحدثت أبي وإخوتي بأمري فقامــوا بحملة جماعية لنصحي وإقناعــي بغير ما أؤمن به، وبدافع من إلحاحهــم الشديــد نزلت عنــد رغبتهــم وخرجت أبحث عــن عمل في محــاولات يائســة، وأدركت بعــد أشهر طويلــة من البحــث المضني أن شهادتي العالية ليست سوى حبر على ورق!!...

وانضممــت إلى قائمة البطالة ومــا أطولها في بلادي، ووقفت على مــا يعانونه مــن آلام نفسيــة، وهم ينظــرون بسخرية إلــى شهاداتهم، تلفحهم رياح سنوات التحصيل والجهد التي زرعوها بعرق جبينهم ولم يحصدوا منها غير المرارة.

وازداد همــي بهــذا الاكتشاف الجديــد لجانب آخــر مــن جــوانب

واقعــي الأليــم، فانطويـت على نفسي فــي عزلتي أعيشـ أيامًّا بلا غد أنتظره ولا أمل أرقبه.

غابت إشراقة وجهي خلف سحابة من الحزن، واختفى بريق الحياة الذي طالمـا كان يشع من عيني، وفقدت شهيتــي، وصاحبني الأرق في الليالي الحالكة ونحل جسمي حتى أصبحت حطامًا لإنسان كان في يوم من الأيام شعلة من الحياة نفسها.

ودخلـت أمي علـيّ ذات يوم وجلست تحادثني في أمـور شتى؛ علّها تعيـد البسمة إلى شفتــيّ، وحينما وجدتني أنصت لهـا ولا أسمع شيئًا، وأنظر ولا أرى، هزتني هزًّا عنيفًا، وهي تقول:

«مـاذا دهـاك؟!... أي كارثـة حلـت عليـك، فآلـت بـك إلــى هذا المآل؟!!... كلهم تخرجـوا وعادوا إلى قراهم سعداء قانعين بحياتهم، ولسـت وحدك من لم يجـد عملاً، والحيـاة مستمـرة برغم كل شـيء، أتريدين لنفسك الموت وقد وهبك الله نعمة الحياة؟!!..».

لـم أرد عليهـا، فقد اختلط كل شـيء في ذهني، ولـم أعد أعرف مـاذا أريد تحديدًا... نظرت أمي في عينيّ، فقرأت في صفحتهما قلقي واضطرابي، فضمتني إلى صدرها كطفلة صغيرة، وقالت:

«ألا تثقين بالله يا صغيرتي؟..».

احتوانــي دفئها، وتمنيت لو أعود إلى بطنها كما كنت أنعم بالراحة والأمــان، أو أبقى صغيرة لا أكبر أبـدًا، وأغلقت عينيّ وهمست أرد على سؤالها:

«إنني أثق في رحمة الله وقدرته وعدله».

فقالت:

«إذًا توجهي إليه بالدعاء، ولن يخذلك أبدًا».

شعرت بضعف شديد أعجزني عن الكلام، وارتخت قواي، وذهبت في نوم عميق كمن لم ينم دهرًا.

استرجعت بعض قواي بعد أيام، فجلست إلى مكتبتي الصغيرة أتصفح كتب سير عظماء هذا الزمان، وما سبقه من أزمنة، أبحث في حياتهم عن أيام بؤسهم وشقائهم، وأقرأ بشغف ما عانوه أوقات ضعفهم وتخاذل قواهم، وكيف واجهوا الحياة بصبر ويقين، ودافعوا عن أفكارهم ومبادئهم حتى خرجوا من ظلمة معاناتهم إلى نور نصرهم، وهم يبدعون ويكتشفون ويكتبون زبدة خبرتهم؛ ليضيئوا بأنوارها طريق من يأتي بعدهم ممن يحملون نفس روحهم، وقرأت:

«إنّ الأزمة تلد الهمة، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك».

وأنشدت:

وأفردت بالألم العبقري وأنبغ ما في الحياة الألم.

وتساءلت: أتراه ألمًا عبقريًّا هذا الذي ملك علي نفسي وزهدني في كل ما هو حولي؟!..

بقيت أيامًا أقرأ، فأزداد ظمأ، وأنام وعلى وسادتي كتاب رسم على شفتي ابتسامة قبل أن أغفو، وأسافر في النهار إلى عوالم أخرى عبر

صفحات الكتب، أعايش أحداثًا وأصاحب أشخاصًا، وأدركت أنني جزء صغير من كل عظيم، وأن معاناتي ليست بشيء أمام ما تعانيه البشرية منذ غابر العصور وسالف الأزمان.

خرجت من عزلتي ذات يوم جميل، وقد رست أفكاري المتضاربة على شاطئ السلام، وأشرق عقلي بنور بدّد ظلام تلك النار المتأججة في صدري، وشعرت بارتياح عظيم لما وصلت إليه، وكأنني ولدت من جديد.

إن الرصيد الذي امتلكته بالجامعة وأدخره الآن في أعماق نفسي لم يعلمني ازدراء الواقع والهروب من العيش في الحاضر وإن كان أليمًا، بل علمني مواجهة هذا الواقع بكل ما يحمله من نقائض، والتأقلم مع الحاضر بقلب مفتوح، وأمل في الغد كبير... إن عليّ أن أداوي ما أجده أمامي من جراح، وأصلح ما ألقاه من فساد، وأدعو إلى كل ما هو خير وأدفع كل ما هو شر.

لقد قضيت سنوات من «الأخذ» في كل مراحل حياتي السابقة وآن الأوان كي أبادر «بالعطاء»، وما أحوج قريتي ووطني كله إلى من يكون نبعًا للعطاء وموردًا للبناء وحاملاً لكل ما هو خير ورخاء.

لأعاود البحث عن عمل، ليس من أجل أن آخذ مقابل عملي مالاً فحسب، بل من أجل أن أعطي ثمرة ما تعلمته خلال سنوات، ولأواصل السعي لتحقيق أحلامي، وليكن واقعي المر وحاضري الأليم الجامعة الأم التي ستصقل فيها شخصيتي حقًّا، ولتكن شهادة تخرجي فيها أكبر من مجرد حبر أسود على ورقة بيضاء، إنها شهادة الانتصار على

كل دواعــي الضعف والانهزام، وحجــج السقوط والاستســلام. أليست حياة التحدي مــن أجل حاضر أجمل، ومستقبــل أفضل أعظم انتصار في هذه الحياة؟!...



المدرسة البرهومية

كان «سي برهوم» رجلاً في السبعين من عمره، عرف بين أهله وجيرانه ببخله الشديد وحبه العظيم لجمع المال وادخاره دون أن تظهر آثار هذه النعمة عليه أو على آل بيته، كانت له زوجة صالحة صابرة وأولاد عشرة عانوا من بخله الشيء الكثير، فمنذ زفت زوجته إليه وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وهو يومها في الثانية والعشرين وهي تعاني معه الأمرّين... فما تذكر يومًا أهدى لها فيه هدية أو قدم لها عطية، وما كساها إلا ما يسترها، أو غذاها إلا ما يسد رمقها، وما أسكنها إلا بيتًا صغيرًا حقيرًا يصيبها الهلع كلما دخلته، فهي حين تجد نفسها داخله تصيبها الدهشة، على أي شيء تطبخ إذا وجدت ما تطبخه؟! وماذا تفترش إذا نامت؟!!... إنه بيت يكاد يكون فارغًا إلا من بقايا أثاث قديم وخرق بالية وأدوات مطبخ صدئة.

واجتهد برهوم في تجارته التي يمارسها حتى نجح فيها، فأغدقت عليه المال الكثير، لكن ذلك لم يدفعه لبسط يده على بيته وزوجته، بل أخذ يجمع ماله ويخبئه أكوامًا في علبة اشتراها خصيصًا لهذا الغرض ولا يصرف منه إلا القليل لشراء ما يستر العورات، وما يكفي لطهي لقيمات يقمن صلبه وصلب زوجته.

وجاء الأطفال إلى هذه الدنيا واحدًا بعد الآخر، ولم يهش لمجيئهم أو يفـرح لمقدمهم، ولكنه لم يكـن يمانع في وجودهم، بل كان الجيران والأقرباء يتنافسون مـن ينجب عددًا أكبر من الذكور!!... فهم لآبائهم مفخرة وأي مفخرة!!...

رزق برهوم سبعة بنين وثلاث بنات، وكلما هلّ بهذه الدنيا أحدهم حـارت الأم في أي شيء تقمطه؟ وماذا تطعمـه، وهي نفسها لا تجد ما تأكله؟!

وفـي كل مـرة يعود زوجهـا من عملـه تطلب منه حاجتهـا وحاجة أطفالهـا فيزجرهـا ويوبخها، وإذا ألحـت ضربها وهجرهـا فتبكي ما شـاء لها أن تفعل! ثم تمسح دموعها وتمضي إلى بقايا ملابسها تمزقها لتصنـع بها لباسًـا لأطفالها، وتجتهـد لطهي ما يسكـت بكاءهم، وهي تدعو اللّه أن يهدي زوجها، فيعطي لها ولأطفالها بعض حقهم.

وتمـر السنـوات، ويكبـر الأطفال، فـإذا هم في الشـارع يمرحون ويلعبـون، لا يأبهون لأقدامهم الحافيـة وأجسادهم نصف العارية، فهم لا يلبســون عادة إلا ما يستر نصف أجسادهـم، أما اللباس الكامل فلا يحظـون به إلا فـي المناسبات والأعيـاد البعيدة، لكنهم كانـوا صغارًا يقنعـون بالقليل من الطعام واللباس وهمهم الوحيد في لعبهم ومتعتهم في جريهم، وكلما تشاجرت الأم مع زوجها بشأنهم يقول زاجرًا:

«اتركيهـم يتذوقون خشونـة العيش ليصبحوا رجـالاً، فما ربينا إلا حفاة عراة، وها نحن أصبحنا رجالاً وفتحنا بيوتًا دون مساعدة أحد».

ثم يتابع مهدداً متوعداً:

«إياك وإطعامهم حتى يشبعوا فتتسع بطونهم، ولا نجد ما يملؤها... القليل من الطعام والضروري من الكساء، فهذا أضمن لحفظ المال وعدم تبذيره فيما لا ينفع!!..».

لكن الأم – ولأنها أم – لم تكن تستطيع البقاء مكتوفة الأيدي حين لا يجد أطفالها ما يأكلون أو يلبسون، لقد هدتها غريزة الأمومة إلى علبة زوجها، فتأخذ من ماله ما يخفف عنها ألمها بتوفير حاجات أطفالها مكتفية بتلبية الضروري منها، وهي ترتجف من الخوف، ليس من زوجها البخيل القاسي فحسب، بل من عقاب الله!!...

وما إن كبر الأطفال ودخلوا المدارس واحدًا بعد الآخر حتى منّ الله عليهم، فهدى والدهم الشيخ الذي استفاق فجأة من سبات بخله العميق فبنى لهم بيتًا في مكان آخر أكثر اتساعًا ورحابة وما لبث الجميع أن انتقلوا إليه فرحين بهذا الفتح العظيم بعد ذلك العذاب المهين.

لكن الأب عاد إلى سابق عهده، فألقى بنفسه مرة أخرى في أحضان بخله يتعبد كل مساء بجوار علبته يعد دراهمه ويعيد عدها، شاعرًا بنشوة لا تضاهى وفرحة لا تعادلها فرحة وهو يرى ماله يزداد وعلبته تمتلئ ولا تفرغ وقد أغلق الباب على نفسه بالمفتاح؛ حتى لا يقطع عليه أحد خلوته، وزوجته وأولاده خلف الباب يلعنون البخل والبخلاء!!...

في كل مرة يدخل سي برهوم بيته يجد أولاده فيه بين رائح وغادٍ، فيصيح فيهم مهددًا متوعدًا:

«ألم أقل لكم ألف مرة: ألا تبذروا الماء ولا تكثروا إنارة الكهرباء... مالكم لا تسمعون ولا تنفذون!!... من سيدفع ثمن كل هذه الفواتير، أم تفضلون أن أقطع عليكم كل شيء!!..».

ويمـر عليه أولاده غيـر مكترثين لتهديده ووعيـده وهم يتهامسون ويتضاحكون:

«ألـف مـرة فقـط!!... إن هـذه الجملـة نسمعها في اليـوم الواحد عشـرات المرات منـذ سنوات، ولا يمل من تكرارهـا... لو قطع عنا كل شيء لارتاح وأراح!!!..».

وأقبـل علـى زوجته فـي المطبـخ، فوجدهـا كعادتها تعـد الطعام يساعدنهـا بناتهـا، جلس على كرسي يلهث من فـرط الصراخ، ثم قال وهو يوجه إلى زوجته نظرة شزرٍ:

«ألـم أقـل لـك: ألا تكثري مـن وضع الزيت فـي الطعـام، فالقليل منـه يكفي ويفيـد والكثير منه يضـر... الزيت غالٍ جداًّ فـي الأسواق، فاقتصدي يا امرأة، ولا تبذري!!..».

نظرت إليه زوجته نظرة غاضبة، وقالت في سخرية:

«الزيت فقـط!!... أخجلت من ذكر كل ما تريدنا أن نقتصد في استعمالـه؟!... كل ما تدفع فيه دينارًا واحدًا من مالك تعدّه غاليًا، هل تريد أن نعيش هكذا دون أن ننفق شيئًا؟!..».

فقال صارخًا في وجهها، وقد انتفخت أوداجه:

«اصمتـي ولا تكثري الـكلام، فـإن ثرثرتك تصـم الآذان، بالطبع تتحدثيـن مـا دمت لا تدفعين مـن جيبك... كل شـيء يخرج من جيبي أنا... أنا من يدفع فقط!!..».

«يا رجل، ماذا دهاك؟!.. هذا بيتك وهؤلاء أولادك، من ينفق عليهم ويعولهم غيرك؟ شئت أم أبيت فأنت مطالب بالإنفاق عليهم ما داموا صغارًا، فإذا كبروا وعثروا على عمل تحملوا حينها مسؤولية أنفسهم».

فزأر في وجهها، وقال:

«سئمت منكم، ومن المصاريف التي لا تنتهي، سئمت منك ومن أولادك وهذا البيت أيضًا... يا إلهي أين المفر؟!..».

تملكها العجب من قول زوجها – وهي دومًا تتعجب لأقواله – وردت عليه، وهي تنظر إليه نظرة إشفاق:

«أين المفر؟!!... والله أنا لا أدري لماذا تزوجت وأنجبت، وأنت غير قادر على تحمل هذه المسؤولية؟ وإذا كنت لا تحب إخراج دينار واحد من جيبك فلماذا لم تبقَ أعزب وحيدًا تنشغل بجمع المال عن أي شيء آخر في الدنيا ما دامت هذه متعتك الوحيدة... اتقِ الله فينا يا رجل، وارحم نفسك وارحمنا من هذا العذاب...!!».

وككل مرة يصل النقاش الحاد إلى طريق مسدود، ويخرج سي برهوم من البيت هائمًا على وجهه، أو يدخل غرفته يمارس طقوسه التعبدية فيها!! ثم ينام فرحًا بما خبأه من مال، حزينًا لتبذير زوجته وأولاده! وكذلك ظل برهوم يصرخ في أولاده ويحاسبهم عن كل شيء فعلوه حتى كبر الأطفال وتشعبت بهم سبل الحياة وأصبحوا رجالاً، ودخلوا ميدان العمل فشعروا بنشوة الانتصار على أبيهم والتحرر من القيود التي لفها حول رقبتهم طوال حياتهم السابقة.

ومرض الشيخ برهوم مرضًا ألزمه الفراش، وطاف حوله طيف الندم على ما فرط في حياته وجمع أولاده وهو على فراش الموت ينصحهم قائلاً:

«إياكم أن تسلكوا طريقي وتتبعوا أثري... لقد قضيت حياتي أجمع المال وأدخره وأحسب ألف حساب قبل أن أخرج دينارًا من جيبي... لم أعطِ لأمكم ولا لكم حقكم في حياة رغدة كريمة، حرمتكم وحرمت نفسي من كل شيء ولم أتصدق من مالي إلا قليلاً... وماذا كانت النتيجة؟!... هأنذا على حافة القبر مريض عاجز يعجز مالي الكثير أن يعيد لي صحتي وشبابي ولا أقوى حتى على تصحيح أخطائي والتكفير عن ذنوبي... لقد فات الأوان... ما أشد وحشة قبري وظلمته ويا لخوفي حين يعذبني ربي بمالي الذي ادخرته ولم أصرفه فيما يرضيه وينجيني!.. خذوا من مالي وتصدقوا به؛ عسى أن يغفر لي ربي بعضًا من ذنوبي..».

ولم تمضِ أيام قليلة حتى ضم سي برهوم القبر تاركاً وراءه ثروة هائلة لم يلبث أبناؤه أن تكالبوا عليها، واقتسموها فيما بينهم بعدما أوشكت نار الفتنة والطمع أن تذهب بما بينهم من أواصر الأخوة ورابطة الدم.

وتزوج الأبناء واحدًا بعد الآخر، واستقلوا ببيوتهم وعائلاتهم وأقامت الأم مع أصغر أبنائها في بيتها بعد أن زوّجته هو الآخر؛ لترتاح من عبئهم...

وتمر السنوات ليمتلئ البيت بالأطفال وتنتشر بين أرجائه حيوية السنين الغابرة وضوضاؤها، ولاحظت الأم ما طرأ على تصرفات ابنها

مـن تغييـر، إنه يضيّـق الخناق على أسرتـه ويحاسبهم علـى كل دينار يصرفونـه، ويحرمهـم كثيرًا من نعم الحياة برغم تيسـر أموره وغناه، فطلبتـه ذات يوم في غرفتهـا وأجلسته إلى جانبها، ثـم قالت وعيناها في عينيه:

«ماذا حل بك يا بني؟!... ما كل هذا التغيير في تصرفاتك؟..».

فقال الابن، وهو لا يكاد يفهم شيئًا:

«ماذا تقصدين يا أمي؟!».

«إننـي أرى في عينيـك صورة أبيك – سامحـه الله – في جشعه وحبه للمـال..»!.

«أمي، أرجوك، إنني..».

«لا تقل شيئًا بلسانـك فأعمالك تتحدث عنك... أنسيت ما قاسيته أنـت وإخوتـك مع والدكم من فاقـة وحرمان وهو يملـك المال ويدخره أكوامًا... أنسيت نقمتكم عليه حين حرمكم من أدنى حقوقكم وأذاقكم ذل الحياة ومهانة العيش!!..».

«إنني لست كأبي، ولا يمكن أن أكون مثله».

«ولمـاذا تعذب زوجتك وأطفالك وتضيـق الخناق عليهم وأنت ولله الحمد ميسور الحال لا يعوزك المال».

«إننـي أفعل ذلك؛ تحسبًا للمستقبـل وحتى أضمن لهم حياة كريمة حين يكبرون..».

فقالت الأم ساخرة:

«سبحــان اللّه... إنهــا كلمات أبيــك نفسها التي ظـل يرددها على مسامعي وأنتم صغار تعانون... صحيح من شابه أباه فما ظلم..».

«لكنك يــا أمي، لا تعلمين أننا نعيش في زمن صعب وإن لم نتقشف فــي المصاريف ونشــد الأحزمة فسنضيــع حتمًا... لا بــد أن نتصرف بحكمة ونتقشف في حاضرنا؛ لننجو من شبح الفقر في مستقبلنا..».

فردت الأم، وقد أصابتها الدهشة لتطابق كلام الابن مع كلام الأب الراحل:

«الخائــف من الفقر في فقر يا بني... اسمعني يا ولدي، إن اللّه هو الذي يرزق ويبارك في الرزق، فتصدق من مالك وأنفق على أولادك تعش هانئ البال مطمئن الفؤاد، وعش يومك وتدبر أمر مستقبلك، ولكن دون جشع أو طمع أو لهفة وتذكر نصيحة والدك قبل موته، فإنني أراك واللّه تحذو حذوه فتندم أيضًا حين لا ينفع الندم».

وعبثًا حاولت تغيير نظرته للأمور، فقد كان متمسكًا بآرائه تمسك والده بها فتركته وشأنه، وهي تدعو اللّه له بالهداية والصلاح.

وشدد الابن الخناق على أسرته أكثر، وأنقص في المصاريف حتى لــم يجد أهل البيــت ما يأكلونه، وعاد أحد أطفاله مــن المدرسة باكيًا، حين تمزق حذاؤه في قدمه ولم يجد ما ينتعله، ولم تطق الزوجة صبرًا فتشاجرت مــع زوجها شجارًا عنيفًا وسمعته أمــه يقول لزوجته غاضبًا والزبد يتطاير من فمه:

«قلت لك ألف مرة إياك وإطعامهم؛ حتى يشبعوا فتتسع بطونهم ولا نجد ما يملؤها،... القليل من الغذاء والضروري جدًا من الكساء يكفي، فهذا أضمن لحفظ المال وعدم تبذيره فيما لا ينفع!!..».

ضاقت الأم ذرعًا بولدها، فقررت زيارة بقية أبنائها بالتناوب، حتى يذهب ما بها من قلق وضجر، وبدأت رحلتها لبيوت أبنائها، فإذا بها لا تقيم عند أحدهم أيامًا حتى تكتشف فيه من البخل والتقشف ما تركته وراءها، وبدت أكثر صمتًا وتفكيرًا وهي ترحل من دار لتحل بدار أخرى وفي نفسها مرارة وألم للحال التي وجدت عليها أبناءها.

مرت أشهر عديدة عادت بعدها إلى بيتها وهي تزداد صمتًا، واعتزلت في غرفتها تصلي وتدعو، والدهشة تملأ نفسها من كل ما رأته وعايشته.

وذات يوم طلبت الأم كل أبنائها، واجتمعت بهم في غرفة الاستقبال الفسيحة واشترطت ألا يحضر أحد غير أولادها، وبعدما أخذوا مجالسهم نظرت إليهم في إشفاق، ثم قالت والأسف بادٍ على وجهها:

«اعتقدت أن والدكم حين مات أخذ معه بخله وتقشفه وزال معه ضيق الحال ومرارة العيش وقد ترك وراءه ثروة أغنتكم جميعًا... اعتقدت أن معاناتكم في صغركم بين يدي أب جشع لا همّ له في الحياة غير جمع المال وتكديسه سيجعل منكم رجالاً أشداء على الحق تحاربون ما تذوقتموه من ألم وحرمان، وأنكم ستتصفون بالكرم والبذل لأهاليكم وذوي الحاجة ممن حولكم... لا أكاد أصدق أنكم أصبحتم نسخًا من أبيكم تدعون إلى ما كان يدعو إليه، وتعيشون حياتكم كما كان يعيشها وتعذبون أطفالكم كما عذبكم هو من قبل..».

وسكتت لحظــة تمعن النظر إلى وجوههم التي بـدأ العرق يتصبب عليها؛ خجلاً من حديثها، ثم استطردت تقول:

«ألــم تعتبروا من موت والدكـم؟ أنسيتم نصيحتــه لكم، وهو على فراشِ الموت؟ ألا تدركون أنكم أصبحتم مثله تمامًا؟!... إنني أسألكم سؤالاً واحـدا: لماذا سلكتم هـذا السبيل المظلـم؟!... لماذا تحرقون فلذات أكبادكم بالنار التي احترقتم بها قبل سنوات؟!..».

وتبـادل الأبنـاء النظـرات، ولم يـدرِ أحدهم بماذا يجيـب.!! وعم الغرفة صمت رهيب لم يقطعه إلا كبيرهم، وهو يقول:

«لا تلومينا يا أمــاه، إننا تجرعنا تربية أبينا قطرة قطرة ويومًا بعد آخـر، فربما ترسخت في أعماقنــا تصرفاته وسرت مع دمائنا أحاديثه وتهديداته والتحمت بأجسادنا سلوكياته، حتى أصبحنا نفعل فعله ونقول قوله دون أن ندرك ذلك..».

فصاحت الأم في وجهه:

«لكنكم دخلتــم المدارس وتعلمتم مكارم الأخــلاق، وعرفتم الحق مــن الباطل... لمــاذا تسلكون طريقًــا لا يرضــاه الله ولا يرضي خلقه، وأنتم تعلمون نهايته في الدنيا وعقابه في الآخرة، لماذا؟..».

وأطـرق الجميـع فـي صمت، وكــلام والدتهم يــدق مســامعهم ويهــدم أســرار بخلهم، ونهضـ أصغرهم – وكان خفيـف الروح محبًّا للدعابة – وقال وهو يمسك رغبته الجامحة في الضحك:

«مــن قــال: إن أبانــا قد مــات؟!... إنه لــم يمت أبـدًا، فهو حي في أعماقنــا بالمبادئ التي غرسها فينا... يا له مــن رجل عظيم حقًّا!!...

لقد سخّـر حياته يغرس مبادئ البخل والتقشـف ويعطينا الدروس عن هذا العالم الرحب من حياة التعبد في محراب الدرهم والدينار... إنه مـات دون أن يعلم أنـه أرسى قواعد مدرسة ستكـون ذائعة الصيت في البخـل والبخلاء وسنسميها مـن الآن. (المدرسة البرهومية)!! ولنكن نحن أول دعاتها؛ لينضم إلينا كل بخلاء الدنيا..».

وأطلق ضحكـة مدوية في الغرفة وتبعه إخوته يضحكون ويصفقون على خطابه الذي ألقاه، وهم يؤيدون فكرته ويهللون لعبقريته.

وجدت الأم نفسها تنظر إليهم ذاهلة، وقد تعالت أصواتهم وتلاحقت ضحكاتهـم، ودون أن تشعـر ابتسمت لتصرفهم ثم بـدأت تضحك هي الأخـرى كأنهـا فهمت مرادهـم، وتغير ما كان بتلـك الغرفة من صمت وكآبة إلى قهقهة وضحك متواصل.



مأساة

خطبــت كما تخطب كل فتاة، وتزوجت كمــا تتزوج كل امرأة، لكنها لــم تهنأ بزواجها ولم تسعد بــه، بل كان دخولها القفص الذهبي فاتحة لعهد التعاسة والشقاء.

كانت «كريمة» فتاة متوسطة الجمال، دون العشرين، ولدت ونشأت في الريف نشأة ساذجة، لم تطأ قدمها المدرسة، ولم يكن عملها يمتد أبعــد من قريتها. قضــت طفولتها ترعى الأغنام كسائــر أطفال سنها، وتمرح في المــزارع الشاسعة لا يحد من حريتها شيء، فلما شبت قرت في بيتهــا تخدم والديها وإخوتها وتنتظر فارســ الأحلام الذي سيطير بها بعيدًا؛ لكي تبدأ المهمة التي ترددها أمها على مسامعها.

فــي بيتهــا الجديد الكائن بقريــة أخرى مجــاورة لقريتها، تعرفت إلى عائلتها الثانيــة، وأول فرد عرفته ليلة زفافها كان زوجها «حسين»، شابًّا في الثامنة والعشرين من عمره، وهو فلاح يعمل في أرض أبيه ولم يعــرف المدرسة أيضًا ونشأ وسط أمه وأخواته البنات بعدما قضى أبوه نحبه في حادث.

عاملهــا بلطف فلم تنفر منه، وسعدت به زوجًا تشاركه حلو الحياة ومرها.

في اليوم المقبل لزفافها جلست إليها حماتها الحاجة «الطاوس» تتودد إليها وتقاسمها الحديث وهي لا تتوقف عن النظر إلى وجهها ولمس ذراعيها وفخذيها كأنها تتأكد أن الزوجة التي حظي بها ابنها لا ينقصها لحم أو شحم!!... وأنها مقبولة الشكل، موفورة الصحة تقوى على عمل البيت الكثير، وتتحمل متاعب الحمل والولادة!!...

جلست بنات الحاجة الطاوس مع العروس الجديدة بعدما وضعن قهوة الصباح على مائدة ملأتها بشتى أنواع الحلويات، أطلقت إحداهن زغرودة طويلة أتبعتها بقولها:

«مبارك عليك يا عروسة... يا زوجة أخينا الحبيب».

فردت كريمة في استحياء:

«بارك الله فيك... وسنفرح بكن إن شاء الله».

لم تلفظ هذه الجملة حتى تناقلت الأخوات الثلاث نظرات ملتهبة كأن مسًّا أصابهن، وقالت الأم ترمق بناتها بنظرات لها معنى:

«إن شاء الله يا ابنتي».

«زينب» كبرى البنات، في الأربعين من عمرها، لم يخطبها أحد منذ سنوات، ولفرط حلمها بزواج لم يتحقق وطول انتظارها دون جدوى أصبحت عصبية المزاج، دائمة الحزن والغضب، لا يعجبها شيء حتى أصبح أفراد أسرتها لا يطيقونها ولا يحدثونها إلا قليلاً.

«دليلة» في السادسة والثلاثين، تردد الخطاب على بابها طويلاً، فكانت ترفض هذا وذاك حتى فاجأتها العنوسة دون أن تدري، وبرغم

تقدم عمرها إلا أنها لم تفقد الأمل في عريس يطرق بابها ذات يوم قبل أن يندثر طيف جمالهـا، وأهم ميزة تميزها غيرتها الشديدة من بنات جنسها، ربما أنشأتها ثقتها بنفسها وغرورها بجمالها، فإن التقت بمن هـي أجمل منها أو تزوجت قبلها تضطرم نار الغيرة في قلبها، فتدفعها إلـى الكيد لهـا وحبك الخطط للإيقـاع بها، وهذا مـا استشعرته تجاه زوجة أخيها.

أمـا «سامية» فهي في الثانية والثلاثين، لا تحب أحدًا سوى نفسها، تجدها حيث مصلحتهـا وتدير ظهرها لكل شيء لا فائدة منه، إن بدت ودودة طيبـة، فاعلـم أن لها حاجة عنـدك، فإن قضتها مـرت كأنها لا تعرفك!!.

أمـا العجوز الطاوس فلـم تكن منصفة، تعيشـ بعاطفتها أكثر من عقلهـا، فهي تؤثـر «حسينا» على بناتهـا فجعلت منه سيـد البيت وهن إماؤه يخدمنه ولا يرفضن له طلبًا، وتؤثر بناتها على كل غريب، وبرغم فرحتهـا الظاهرة بالعروس إلا أنها تشعر في دفينة نفسها ببعض الكره لهـا؛ لأنها أخذت منها ولدهـا. كان يلزم كريمة بضعـة أشهر لتكتشف كل هـذا عن أفراد عائلتها الجديدة، ولتدرك أنها بزواجها دخلت حربًا ضروسًا مع أهل زوجها اللائي جهرن بكيدهن وأظهرن حقدهن.

أوكلت أغلب الأعمال المنزلية إلى كريمة، تقوم بها في صمت، باذلة جهدهـا لإرضاء حماتهـا وأخوات زوجها، لكنها قوبلـت بنظرات باردة تتبعهـا همسات وحركات تشعرها دومًا أنهـا غريبة. هي أشبه ما تكون بحرب باردة لم تتحول إلى ساخنة إلا بعد مرور عام على زواجها، إذ لا

يمر يوم دون أن تنشـب معركـة مع إحـداهـن تبدأ بالنظرات والكلمات وتنتهي باللكمات والضربـات!!..

دخـل «حسين» ذات يوم إلى البيت مرهقًا، فاستقبله صراخ النسوة وضجيجهن، ومـا إن رأته زوجته حتى أسرعت إليه تحتمي به، وعيناها منتفختان يفيض الدمع منهما، فقالت باكية:

«أنجدنـي يا حسين... تكاد أخواتـك يجهزن علي... انظر ما فعلته بي أختك دليلة..».

وأشارت إلى بقع زرقاء على وجهها، فاقتربت أمه وقالت بأسى:

«هـي التي اعتـدت على أختـك وعيرتهـا بالعانس، وعندمـا أردنا تهدئتهما هجمت علي وأرادت أن تضربني..».

واستدرت عينيها فأكرمتاها بدموع غزيرة، ورفعت صوتها بالنشيج قائلة:

«تريـد زوجتـك أن تطردنـا مـن البيـت؛ لتمتلـك كل شـيء مثلما امتلكتـك... أيرضيك أن تـذل أمك في شيخوختهـا وأخواتك، وهن فـي أمسّ الحاجة إليك؟!.. لا بد أن توقفها عند حدها قبل أن يستفحل خطرها في هذا البيت».

وانضمت أخواتـه إلى أمهن يلفقن الأكاذيب، حتـى امتلأت نفسـه غيظـاً، ودون أن يستمع لزوجته انهال عليهـا ضربًا صارخًا في وجهها والزبد يتطاير من فمه:

«إيـاك أن تتعرضي لأمي وأخواتي بسوء، لَنْ تنالي غير الضرب إذا اشتكين منك، هل تسمعين؟».

وانصرف هاربًا من الجحيم الذي استقبله، فنغص عليه عيشه.

كان مجـيء الطفل الأول أكبر عزاء لكريمة، حمل لها السعادة التي حرمـت منها وأشعرها وجوده بالقوة والأمان، لكن زوجها لم يظهر حبًّا لابنـه ولم يغير من معاملته القاسية لها، وأتبعت طفلها بآخر؛ عسى أن تـزول الغشاوة عن عينيه ويحب طفليه، لكنـه تمادى في قسوته وأصبح لا يأبـه بهـا أو بولديهـا، فكانت تدخل إلـى غرفتها وتضـم طفليها إلى صدرها، وهي تشعر بالخوف، وقد مات كل أملها بموت قلب زوجها.

وفاضـت الكأس ذات يوم إثـر شجار عنيف أشعلـت جذوته زينب بغضبهـا الأعمى، وألهبت نـاره دليلة بغيرتها المدمـرة، وعززت لهيبه ساميـة بأنانيتهـا المفرطة، فحملـت كريمة طفليهـا مذعورة وخرجت كالمجنونـة تجـري على قدميهـا قاصدة بيـت أهلها، قبـل أن تأتي نار الفتنة المندلعة هناك عليها فتحرقها.

استرجعـت أنفاسهـا ببيت أهلهـا، وشعرت بالحمـل الثقيل يخف عـن كاهلها حين أفرغت ما بصدرها، ولم تجد بدًّا من المطالبة ببيت يضمها هي وأولادها عساها تجد فرصة لإصلاح ما فسد، وإذا لم يحقق زوجها مطلبها، فالطلاق أهون عليها من حياة الجحيم تلك.

مـرت أيـام وأسابيـع دون أن يسـأل عنهـا أو عن ولديـه، وملأتها الدهشة كيف لا يأبه بأمر ولديها، وكيف تزوجت برجل يحمل في صدره قطعـة من الحجـر، ولا يحمل فـي موضعه ذلـك قلبًـا ككل البشر!!...

وحظيت كريمة في بيت أهلها بالرعاية والحنان، وأحاط بها إخوتها يلبون رغباتها ويلعبون مع الطفلين في سعادة غامرة، فأنساها ذلك بعض ما عانته هناك.

زارها ذات يوم، وقد لبس على وجهه قناع الندم على ما فات والرغبة الصادقة في إصلاح ما هو آتٍ، وأظهر قلقًا عليها وعلى ولديه واعتذر على معاملتها القاسية وأقسم لها إن عادت أن يبدأ معها عهدًا جديدًا. صدق الأهل حديثه، أما كريمة فصممت على مطلبها في الاستقلال ببيت خاص بعيدًا عن جو الحقد والحسد والمؤامرات الدنيئة، وقال الزوج بوقار الرجل المسؤول:

«عودي فقط إلى البيت، وسأسعى منذ الآن لإيجاد مسكن منفصل، وربما ساعدنا محصول هذا العام على بناء بيت لنا على أرضنا، بعيدًا عن بيت أسرتي... كل هذه الأمور سنناقشها لاحقًا، المهم الآن، عودتك للبيت..».

كان يتذلل في حديثه ويتوسل إليها، وبرغم أن قلبها يحدثها بكذبه وعدم صدق نواياه إلا أنها لم تجد بدًّا من العودة أمام إلحاح عائلتها بالعيش مع أولادها في كنف زوجها.

وما هي إلا أشهر قليلة حتى بدأ جنين آخر يتحرك في أحشائها وآلمها ألمًا شديدًا، إذ كشف زوجها القناع عن وجهه وعاد إلى سابق عهده، يصدق أكاذيب أخواته وأمه فينهال عليها ضربًا كل يوم، وتصبر حتى تعجز عن الصبر فتحمل ولديها، وتفر إلى أهلها ثم يرجعها مرة أخرى بعد تمثيل دوره البارع ويقسم إنه تغير لتتكرر الأحداث نفسها في كل مرة بمرارة تزداد يومًا بعد آخر.

كانـت كريمة غاضبة في بيت أهلها، حيـن شعرت بآلام المخاض، ونقلت إلى المستشفى لتضع مولودها بعد أيام، لم يأتِ حسين لزيارتها إلا بعد شهرين من وضعها، جلس قربها لحظات، ثم نهض مسرعًا كمن لدغته أفعى، قائلاً:

«جئـت آخذ الصغير؛ لتعتني به أمي وأخـواتـي لحيـن خـروجـك مـن المستشفى».

ذعرت حين سماعها قوله، وضمت طفلها إلى صدرها، وقالت:

«لا !... لن تأخذه مني أبدًا... سيبقى معي وسنخرج من المستشفى معًا».

ابتسـم بخبث واقترب منها حتى أوشـك أن يلامس وجهها برأسه وهمس في أذنيها:

«مـن الأفضل أن تعطيه لي الآن إن كنت حريصة على رؤية طفليك الآخرين..».

فصرخت في وجهه:

«إنهما مع أهلي، إياك أن تأخذهما».

فابتسم ابتسامة ماكرة، وقال:

«لقـد أخذتهما منذ أسابيع، لا تنسي أنني أبوهما، والأولى أن يكونا معي في أثناء غيابك».

شعرت بالألم يعتصر قلبها، وقالت بنبرة حزينة:

«ماذا تريد مني؟!..».

«الطفل... أريد أن يتربى مع أخويه، وإن أردت رؤيتهم فعليك أن تعودي للبيت..».

«وإن لم أفعل!..».

«لن تري طفليك الآخرين أبدًا..».

صرخت في وجهه، قائلة:

«أعد إلي أطفالي وطلقني... أنت لا تستحق أن تكون أبًا..».

لم يأبه بكلامها، وقال:

«لن أطلقك أبدًا، ستعودين لرؤية أطفالك الثلاثة وحينها سيكون لي تصرف آخر معك».

وبحركة سريعة أخذ وليدها من يدها، وهي شاخصة العينين كالمخدرة، وخرج كاللص تاركاً وراءه أمًّا غارقة في دمعها، وقلبها ينزف بين أضلعها.

عادت كريمة إلى بيت أهلها، وقد صممت هذه المرة على الطلاق، وأرسلت في طلب أبنائها فرفض، طالبًا عودتها، فلم تهتدِ إلى حل آخر غير رفع قضية بالمحكمة، لكن أهلها عارضوا فكرتها وألحوا عليها أن تصبر، إذ ستنقل تربية الأطفال على كاهل زوجها، فيجبر على فتح بيت مستقل يجتمعون به، ولم يقدر أحد أن كريمة أم لا تطلب شيئًا في الدنيا غير أن تربي أطفالها في حضنها.

مــرت الأسـابيع دون أن يظهر في الأفق ما يبشر بالخير، وأمام آلام قلبها الجريــح وإلحاح أمومتها الدافقة قــررت الرضوخ لمطلب زوجها والعــودة لبيتها، إلا أن أهلها رفضوا بشدة... لقد خرج الأمر من يدها، وأصبحت المسألة عنادًا وتشبث كل طرف برأيه.

فــي تلك الأيام بــدت شاردة الذهن، مشتتة الأفــكار، قليلة الكلام، تنــزوي بمفردهــا في مكان بعيد بيــن الأشجار الباسقــة لا تفكر إلا في أطفالها. وتجلس أمها قربها، قائلة لها في إشفاق:

«اصبري يا ابنتي، سيعيد لك إخوتك أطفالك دون أن تعودي لذلك الوحش الذي حرمك مــن أدنى حقوقك... لا تبتئسي يا كريمة، فرحمة الله واسعة».

وتعجــب كريمة كيف لا يفهمها أهلهــا... ألا يدركون أنهم يذبحونها حيــن يطلبون منها الصبر، وهــي بعيدة عن فلذات كبدهــا؟!!... كيف تصبــر أم على فــراق صغارها؟!... إنها لتفكر فــي ابنها الرضيع الذي لــم تهنأ بــه إلا أيامًا قليلة، يطلــب قطرات لبنها بصراخــه المتواصل، ويرنو بعينيه البريئتين، باحثًا عنهــا فلا يجدها... يا لتعاستها وتعاسة أطفالها وسط قوم لا يفهمون!!...

تمضي الأيام على كريمة، وهي شاخصة ببصرها في السماء تضم يديهــا إلى صدرها كأنها تضم صغارها، وتجلــس بين الناس، فإذا بها غائبــة عنهم لا تفتــح شفتيها بكلمة، وإذا نطقــت همهمت بكلمات غير مفهومة، وهمس الزائرون حولها: لقد جنت كريمة!!..

لـم يستطـع أحـد أن يعيد إليهـا عقلهـا الغائـب، وابتسامتها التي أخفتهـا غيوم كثيفة مـن الحزن والتعاسة تمطر دموعًـا غزيرة ونحيبًا أشبه بعويل الثكلى.

أشفقـت عليهـا إحـدى أخواتها المتزوجـات، فأخذتهـا إلى بيتها الكائن بالمدينة؛ علها تنسى ما ألم بها، لكنها بقيت على حالها صامتة، حزينة، منكسرة، لا تعي ما يحدث في عالمها الخارجي، بينما تقوقعت مع أطفالها في عالمها الداخلي لا يغيبون عن خيالها لحظة واحدة.

أقبل زوج أختهـا ذات يوم، حاملاً قارورة صغيرة أخبر زوجته عن خطـورة محتواها، وسارع بإخفائها في مـكان لا يصل إليه أولاده، لكن كريمـة التقطت كلماتـه، واستطاعت يدهـا أن تصل إلى مـا أخفاه... وبعيـدًا عن أعيـن الجميع أفرغتهـا في جوفها؛ علها تطفـئ النار التي بداخلها!!...

حملـت على جنـاح السرعـة إلـى المستشفى، ولـم يستطع الطب إنقاذها، وقد تآكل كل شيء داخلها بفعل ذلك السائل المميت. ولفظت أنفاسهـا الأخيرة بعد معاناة مريرة وصورة أطفالها الثلاثة بين عينيها وأصواتهم تتردد على أذنيها.



النزيف

أشرقت شمس ذلك اليوم على «علي» وهو يغادر المصحة النفسية التـي التهمت بعض سنوات عمره الحزينة، ووقف خارج أسوارها يتأمل زرقة السماء، ويملأ رئتيه بنقي الهواء وهو يشعر بالحرية تحرك نفسه الميتة كأنه خرج من سجن مظلم لم يلاقِ فيه غير العذاب والألم. وظل في وقفته زائغ النظرات يفكر:

«إلـى أين أمضي، ولا أهل لي أو صديـق؟!... هذه سنوات عدة وأنا فـي هذا المكان البـائس لم يسأل عنـي أحد... وهـل بقـي علـى الأرض من يذكرني بعد الذي حدث؟..».

واشتعـل الحنين فجـأة في نفســه، فتحركت قدمـاه يتبعها جسده الواهــن، حتى وصل المدينــة الصاخبة ثابت الأقـدام متقد النظرات، وأكمـل السير إلــى محطة الحافلات، فركب إحداهــا ببقية مال سلمها لــه بعض المحسنين فـي المصحة. أمام النافذة جلس يرقب المدينة الكبيــرة، وهــي تختفي عن ناظريه، وودعها بدمــوع ساخنة، ليس حزنًا علــى فراقهــا أو أسفًا لوداعها، وإنما ذكرته بذلــك اليوم الذي جيء به إليها منذ ثماني سنوات، وفي أي حال كان عليها.

ألقى رأسه على المقعد، فالطريق إلى وجهته لا يزال طويلاً، وعبثًا حاول إبعاد طيف الأحداث الماضية كلما أغلق عينيه، ففتحهما باذلاً جهده؛ كي لا تستولي ذكريات الماضي على حاضره، فيفقد توازنه وتتدهور حاله.

توقفت الحافلة في مكان يعرفه جيدًا، فهبط وقد سرت الدماء في عروقه وعلت الابتسامة محياه حين رأى بعض المنازل المتباعدة وسط أراضي زراعية شاسعة... إنها قريته التي نشأ فيها وتربى في أحضانها، لا بد له من السير واختراق تلك الحقول؛ حتى يصل بيته... هو بيت بسيط ككل بيوت الفلاحين، مبني بالحجر والطين، يحيط به فناء كبير، حيث خصصت أماكن لقطعان الغنم وبعض البقرات والدجاج تحرسها كلاب وفية. يحيط بالبيت أشجار عالية تخفيه عن باقي البيوت الأخرى، وفي ركن منه توجد بئر هي مورد الماء الوحيد لكل فلاح... كم حذره والداه من الاقتراب منها، وكم كان يحلو له ولإخوته اللعب قربها واختلاس النظر إلى مائها الرقراق ورمي أحجار صغيرة داخله؛ ليستمتعوا بذلك الصوت الجميل الذي تحدثه عند ارتطامها بالماء.

ترى كيف حال داره الآن بعد سنوات الغياب هذه؟!

دق قلبه بين جوانحه حين بدا له بيته من بعيد، فجرى لاهثًا؛ لكي يصل إليه، ووقف برهة قبل أن يدخل، إن الهدوء يعم المكان كهدوء تلك الليلة البعيدة... تردد في دفع الباب وتخاذلت قواه، لكنه استجمع شجاعته، وفي حركة سريعة وجد نفسه داخل فناء بيته العزيز... هذا ما كان يخشاه... أن يعود إلى هذا المكان ويقف هذه الوقفة، فيرى ذلك

المشهـد من جديد... اعتقد أنه سيكون قويًّـا وسيقدر على مواجهة ما تهـرب منه سنوات، لكنه وجد نفسـه أضعف مما تصور، إذ كل مشاهد تلك الليلـة تتوالى على مخيلته فأخذ ينتحـب كالأطفال ويصرخ بأعلى صوته، حتى سقط مغشيًّا عليه.

فتح «علي» عينيه فإذا به ممدد داخل البيت وبقربه رجل ابتسم له وقال: «كيف حالك الآن يا بنـي؟».

نظر حوله بعينين زائغتين وفكر شارد، ثم رد متمتمًا:

«الحمد للّه».

«إننـي سعيد جدًّا برؤيتك مـرة أخرى بعد هذا الغيـاب الطويل... أعـرف أن ما حدث لم يكن بالأمر الهيـن، لكن الحياة لا بد أن تستمر، وأنـت ما شاء اللّه أصبحت رجلاً، وتستطيــع أن تعيـد الحياة إلى هذه الدار بعد أن غادرها أهلها».

نظر إليه الفتى نظرة استفهام، ففهم الرجل مراده، وقال:

«تتساءل من أكون وكيف عرفتك؟!... أنا جارك «عيسى» أسكن في أقرب بيـت إلى مسكنك هذا، وقد كنت بالجوار حين سمعت صراخك، وعندمـا وصلت وجدتك فاقد الوعي، فعرفت من تكون؛ لأنه لم يبقَ من تلـك الأسـرة الراحلة غير ولد واحـد نجا بقدرة اللّه مـن موت محتم، وأذكـر جيدًا أنك كنت في نحو الثالثـة عشرة من عمرك، وحين رأيتك الآن لـم أشك لحظة واحدة أنك «علي» ابن الشيح سليمان صاحب هذه الأرض».

وصمت الجار كأنه يستعيد تلك الذكرى المؤلمة، ثم قال:

قــدر اللّه ألا نكون في بيتنــا تلك الليلة، وإلا لأصابنــا ما أصابكم، لقــد عدنا بعد أيام فسمعنا من أفواه الناس مــا حدث لعائلتك، وسألنا عنــك حين علمنــا بنجاتك لكننا لم نعثر لك على أثــر. كان أبوك جارًا طيبًا وصديقًا مخلصًا رحمه اللّه ورحم أمك وإخوتك وليجازِ اللّه القتلة الظالمين».

وسكــت حيــن رأى الدموع تفيض من عيني «علــي» فربت على كتفه وقال:

«كفى بكاء يا بني، فالبكاء لا يحيي الموتى، ولا يعيد ما ذهب، وفكر في مستقبلك وحياتك».

فرد «علي» منفعلاً، وقد ارتفع نحيبه:

«إنــك لم ترَ ما رأيته بأم عيني، ولن تتصــور أبدًا فظاعة ما رأيت، إنه فوق احتمال البشــر وفوق احتمالي، فكيف تريدني ألا أبكي وعائلتي كلها اختفت في ليلة واحدة بأبشع الطرق..»..

وصمت يلتقط أنفاسه ويمسح دموعه، ثم واصل، قائلاً:

«كان كل شــيء هادئاً تلك الليلة، كنــا جميعــًا ننام في دعة وأمان حيــن استيقظت علــى أصــوات غريبة لم تلبــث أن اقتربــت وارتفعت، وشعرت بوجود أجســام تتحرك في دارنا، كنت أول المستيقظين لذلك نهضــت مــن مكاني وتسللت حيــث قطيع الغنم، فاختبــأت بينها وبقيت هنــاك بلا حراك... الظلام يسود المكان، حتــى القمر كان غائبًا تلك

الليلة فشعرت بخوف شديد ووحشة رهيبة. تحولت همسات الغرباء إلى كلام واضح، وإذا أحدهم – لعله زعيمهم – يصرخ بصوت كالرعد:

«هيا. أخرجوهم هنا بالقوة».

سمعت صراخ والدي وإخوتي، وهم يدفعون إلى الفناء دفعًا وآثار النوم لا تزال في مآقيهم، أضاء الغرباء المكان فرأيت بأم عيني ذلك المشهد المروع وكأنني أرى كابوسًا فظيعًا لا نهاية له. تعلقت أختي الصغرى «أمينة» بأمي وهي تبكي والتصق إخوتي بوالدي والخوف يكاد يقتلهم، بينما اقترب أبي منهم وقال متوسلاً:

«أرجوكم أن تتركونا بسلام، إننا لا نملك شيئًا غير هذه الأرض التي نعيش عليها وبعض قطعان الغنم وعددًا من البقرات... خذوا كل ما نملك واتركونا... لقد أخفتم الأطفال، أرجوكم أن تذهبوا».

لم يتفوه الأشرار بكلمة واحدة، كانت أجسامهم ضخمة يتطاير الشرر من أعينهم كألسنة من النيران، وعلى ظهورهم أسلحة مخيفة لم أرها من قبل وسكاكين كبيرة في أيديهم كتلك التي نستعملها لذبح كبش العيد!!.. ورأيت زعيمهم يومئ لأحدهم بحركة رأسه، فتقدم رجل لم أرَ أضخم منه جسمًا ولا أفظع وجهًا نحو أبي فجره إليه، بينما أمسك الباقون بأمي وإخوتي وهم يصرخون ويستغيثون، وفي لمح البصر وضع سكينه على رقبة أبي وضرب عنقه ثم رمى برأسه جانبًا... أسرع بعدها إلى أمي وانتزعها من بين إخوتي وأغمد السكين في رقبتها وبقيت تنتفض بين يديه حتى أسلمت الروح..».

أجهش «علي» بالبكاء حتى اختنق صوته، ثم واصل حديثه، والعبرات تغسل وجهه:

«تقدم الشرس من إخوتي ورمقهم بنظرة شزر ولم يمهلهم حتى ذبحهم الواحد تلو الآخر، وحين جاء دور أمينة ذات الربيعين التصقت بأمها الميتة وتعالى صوتها بالبكاء، وهي لا تعرف شيئًا مما يحدث حولها، ظنت أنه سيشفق عليها ويرحم براءتها غير أنه لم يأبه بها وانقض عليها يذبحها».

سكت «علي» عن الكلام، وقد تجمدت ملامح وجهه وشخصت عيناه، فضمه عيسى إلى صدره بحرارة، وهو يبكي:

«يجب أن تنسى كل شيء، اطرد هذه الذكرى المؤلمة من حياتك، وإلا ستلحق بهم همًّا وحزنًا».

«لو خرجت إليهم وقتلت معهم لكان ذلك أرحم من العذاب الذي عشته بعدهم... لكنني تجمدت مكاني وبقيت ذاهلاً عن كل شيء حولي حتى بعد رحيلهم وعودة الهدوء القاتل إلى بيتنا... ولا أدري ماذا حدث بعدها؟!... كل ما أذكره أنني أصبحت أقرب إلى الرجل مني إلى الطفل، أعيش في مصحة يحاولون فصلي عن تلك الذكرى وتأبى إلا أن تلاحقني في كل مكان..».

قال الجار بنبرة حانية، محاولاً كتم دموعه:

«سلّم أمرك لله يا بني، فإن الحزن لن يجدي نفعًا، واصبر على ما أصابك من بلاء، وحاول أن تبدأ حياتك مجددًا... من أجل أن تمد بوجودك جذور عائلتك الراحلة».

لاحظ العم عيسى الإعياء باديًا على وجه «علي» فهمّ بالانصراف قائلاً:

«يبدو أنك لا تزال متعبًا، سأدعك ترتاح وأعود لاحقاً».

وآلمه أن يخرج ويتركه بمفرده؛ فقال وهو يضغط على يده بقوة:

«إنك لم تعد وحيداً بعد اليوم، أنا وعائلتي سنكون أهلك ولن تشعر بالوحدة أبدًا... هيا ابتسم فرحمة الله أوسع من أن ندركها».

ثم مضى وفي نفسه بعض الارتياح حين رأى ابتسامة شاحبة ترتسم على وجه «علي» وأسرع إلى زوجته وأولاده ينقل لهم أخبار جارهم الشاب، ويدعوهم لمساعدته؛ حتى ينسى ما ألم به.

كانت عائلة الجار «عيسى» من الطيبة ونبل الأخلاق ما جعل أفرادها يترددون على الفتى المنكوب كل يوم يحدثونه ويشغلونه بكل أمر، فانصرفوا إلى البيت يصلحون ما فسد فيه ويعيدون الحياة لغرفه وساحته وبستانه، ويدفعونه للعمل، حتى استغرق فيه فنسي بعض همه.

دبت الحياة في عقل «علي» وشعوره، فإذا هو يجد في نفسه ميلاً لإحدى بنات الجار الطيب، فطلبها للزواج فرضيت الفتاة وأهلها، وأقامت القرية عرسًا كبيرًا لم تشهد مثله منذ تلك الأحداث المروعة.

تجددت الحياة بتلك الدار وأضحت أشبه مما كانت عليه من قبل، ووجد «علي» برفقة زوجته راحة قلبه واستقرار نفسه، واختفت تلك الكوابيس التي لازمته سنوات طويلة، وسكن إلى الحياة وكأنه ولد من جديد.

وضعت الزوجة مولودها الأول، فكان مجيئه أكبر بشرى وأعظم سلوى، وإذا بالطفلة الصغيرة تداوي كل الجراح بصرخاتها البريئة، معلنة للكون أن الحياة مستمرة برغم كل شيء.

«ماذا نسميها؟!..». قالت الزوجة.

«أمينـة... سنسميهـا (أمينة) علـى اسم أختي الصغـرى؛ لأسعد بلقائها كلما ناديت ابنتي».

اقتـرب عيـد الأضحى المبـارك، وكان لا بـد لعلـيّ أن يذهب إلى القرية المجـاورة لبيع بعض رؤوس الغنم يوم السوق الذي يسبق العيد، ويشتري بعض الهدايا لزوجته الحامل وطفلته التي بلغت العامين.

نهضـ ذلـك اليوم باكـرًا، ونهضت زوجته تعد له فطـوره ثم تبعته إلى الباب الخارجي للدار تحثه على العودة سريعًا، وودعها واعدًا إياها بالعودة محمولاً على رياح الشوق.

خـرج «علي» والشمس لا تـزال نائمة لم تستيقظ بعـد، ونجوم ليلة صافية تتلألأ في السماء، ولم يبلغ القرية إلا وقد بدا وجه الشمس يرسل الدفء والضياء، دخل السوق فوجده مكتظاً بالبائعين والمشترين، ولم يبـع بضاعتـه حتى مضى بعضـ النهار، وقضى ما تبقـى منه في شراء لوازم العيد وهدايا أسرته الصغيرة.

كانـت الشمسـ تتأهب لتوديـع أهل الأرضـ، حيـن كان في طريق العودة يمشي ويغني أغاني الرعاة وبلغ بيته ولم يبقَ من إشراق الشمس الذاهبة غير خيوط رقيقة تفصل بين نهار مدبر وليل مقبل دفع الباب، ينـادي ابنتـه باسمها المدلل «أمونة» الذي أطلقـه عليها حتى تأتي إليه فيضمهـا إلى صدره ويمطرها بالقبلات وقد اشتاق إليها بعد غياب يوم كامـل!!... طاف باحثًـا عنهما، يتغنى بالهدايا التـي أحضرها ويختبئ فـي كل ركن؛ علـه يجد أمونته تلعب هنا أو هنـاك، ولكنه لم يجد أحدًا

فـي البيت، وانتبه إلى صمت المكان وهدوئـه الغريب، وتذكر أن كلابه الوفية لم تهرع لاستقباله كعادتها وهي تنبح وتتبعه حتى يدخل الدار... ترى أين هي؟!..

شعـر بوخز في قلبه فسقطت هداياه من يده، وخرج مهرولاً يطوف بالبيـت؛ باحثًا عنهما، فعثر على كلبين من كلابه ميتين بين الحشائش والأعشاب فأصابه هلع فظيع أعجزه عن الحركة والرؤية والتفكير فجثا على ركبتيه يغالب الدموع في عينيه ويقول:

«لا، لـن أطيقها هـذه المرة... لـن أطيق مأساة أخـرى... زوجتي وابنتـي هما كل حياتي، ولو حدث لهما مكـروه فلا حياة لي بعد الآن... لا حياة لي..».

ثـم نهض كالمجنون لا يدري أين يبحـث عنهما وقد أوشك الظلام أن يلـف المـكان، وشعر بشيء ما قابعًـا على مقربة منــه، فمضى إليه مسرعًـا يلهـث، فإذا زوجته ملقاة قـرب البئر سابحة فـي دماء أخفت ملامح وجهها، فجلـس إليها وحملها بين يديه باكيًا، وهو يمسح وجهها بطرف ثوبه... وفي لحظـة كوميض البرق قفزت صورة أهله إلى ذهنه واحدًا، واحدًا... أبوه... أمه... إخوته... وها هي ذي زوجته أمامه ككل أحبتـه غارقة في دمائها تكاد رأسهـا تنفصـل عن جسدهـا، تحمل جثة أخرى في بطنها، كالأمس القريب...

نهضـ من مكانه يجري في الفيافــي، وقد انتشر السواد في الأرض مثلما انتشر في نفسه، وردد الكون كله صدى صوته وهو يصرخ صرخة أذهبت ما تبقى من عقله.

السقوط

كان «مصطفـى» زميــلاً لي في العمل، نتقاســم مكتبًا واحداً يتكون من حجرتين يفصــل بينهما باب صغير، ضمت الحجرة الأولى مكتبين موضــوع عليهما أكوام من الدفاتــر والأوراق، أما الحجرة الثانية فليس فيها سوى خزانة حديدية وبعض الأدراج لحفظ ملفات العمل.

شعــرت بالاطمئنان أول يــوم تعاملت فيه مع زميلــي، إذ كان رجلاً طيبًــا لا تفارق الابتسامــة وجهه، عرفته وقد تجــاوز الأربعين، غير أنه - لنشاطه المعهود واهتمامه بنفسه – يبدو أقل من عمره بسنوات، ومع مرور الوقت نمت زمالتنا لتصبح صداقة متينة ومحبة خالصة، وبرغم كونه رجــلاً كتوماً لا يحدّث أحدًا عن حياتــه الشخصية إلا أنه خصني بالحديــث عن أمــوره الخاصة، وكم كنت معجبًــا بحياته الزوجية، فقد كان سعيداً مع زوجته وأطفاله الخمس، هانئًا في عشه الدافئ، يرفرف الرضى والمرح على كامل أرجاء بيته.

قال لي ذات يوم، ونحن نتبادل أطراف الحديث:

«هل تعرف يــا رؤوف... أنا أول رجل في حياة زوجتي، فقد أحبتني ولــم تبلغ الثالثــة عشرة بعد، كانت تزورنا بحكــم القرابة التي تربطنا،

وكنت أزورهم أيضاً، وبرغم أنني عرفت كثيرًا من النساء قبلها إلا أنها لم تعرف رجلاً آخر غيري... لقد ملكت حياتها كلها، ولا أدري ما كانت ستفعل بنفسها إن لم نتزوج!!..».

«إنــك رجل محظــوظ يا صديقي، فالنساء كــن دائماً تحت قدميك يرجــون قربك، وفي الأخيــر تزوجت قريبتك؛ لتحمل لــك السعادة في طبق من ذهب!!..».

فرد كأنه يفكر فيها:

«فعلاً... عشر سنوات من الزواج أهدتني خلالها السعادة التي يحلم بها كل رجل... هي تقول دائمًا: إن سعادتي عندها غاية وجودها».

وشرد قليلاً، ثم أضاف قائلاً:

«لكنهــا امــرأة غيور جدًّا... ربمــا درجة غيرتها تفــوق درجة حبها لــي، وهي تبذل جهودًا كبيرة لكبح جمــاح غيرتها؛ لكيلا تؤثر سلبًا على علاقتنــا، كما أنها أفهمتني شيئًا واحــدًا بصرامة أخافتني، ولم تردده على مسمعي إلا مرة واحدة..».

فسألت مندهشاً:

«ماذا قالت لك؟!».

«قالــت: إذا استبدلــت بــي امــرأة أخــرى، فإنهــا نهايــة مــا بيني وبينك!!..».

فقلت، مازحاً:

«هــي كما يقــول شكسبيــر: المــرأة إذا أحبت أحبت بجنــون، وإذا

كرهت كرهت بجنــون أيضاً... يجب عليك يا عزيزي، ألا تكفر بالنعمة وتدوس على السعادة التي تهديها لك زوجتك فتخسر كل شيء».

فقال شارداً:

«أقدر ذلك حق التقدير، لكن..».

«مــا زلت أجد فــي نفسي بعض الضعـف تجاه النســاء برغم حبي لزوجتي... ألا ترى هذا غريبًا ومتناقضًا؟!..».

اسمــع يا مصطفى، لا يملــك الإنسان قلبين في جوفــه، وإذا أحب الرجــل امرأة واحدة حبًّا صادقًّــا، فهي تغنيه عن كل نساء الدنيا، بل لا يمكــن أن يستشعر في نفسه أي ضعــف، وزوجته الحبيبة بين يديه. إذا كان يحبها فعلاً..».

«إننـي أحبها حقيقة، لكنني رجل ككل الرجال!!..».

فقلت مبتسماً:

«تقصد: خائن... غادر... مخادع..».

فرمقني صاحبي بنظرة غاضبة، وقال:

«أتهزأ بي يا رؤوف؟!..».

«لم أقصد، لكنني أعدد لك صفات الرجل الذي ذكرت... الرجل لا يمكــن له أن يحب في الحقيقة غير امرأة واحدة، أما عدا ذلك فنزوات ورغبــات يتمنــى تلبيتها بحجــة ضعفه البشــري، لكن الرجــل المؤمن يخضــع لميــزان الحلال والحرام؛ حتى لا يقوده هــواه وضعفه إلى ما لا تحمد عقباه».

أشرق وجهه بابتسامة هادئة، وقال:

«لا تخش شيئاً يا صديقي العزيز، إن بيتي أغلى ما أملك في حياتي، ولن أفعل ما يهدد سعادته واستقراره».

وقطع نقاشنا بعض زملائنا، فنسينا هذا الموضوع وانصرفنا إلى أعمالنا.

بعـد بضعـة أسابيع، أُرسلـت مبعوثًا من شركتنا إلـى شركة أخرى في ولاية بعيـدة أقوم بتربص لأكثر من عـام، فودعت صديقي ووعدته بالزيـارة كلمـا أتيحت لي الفرصـة، وشددت الرحال إلـى تلك البلدة، فمكثت بها بضعة أشهر.

فـي إحـدى الإجـازات القصيـرة، أردت إسعـاد صديقـي بزيارة مفاجئـة، فذهبـت إلى المكتـب دون أن أسأل عنه، ولأننـي أملك مفتاح الباب الخارجي فقد دخلت فلم أجد أحدًا بالغرفة الأولى، فسعدت بذلك سعـادة كبرى، إذ قلت في نفسـي: أختبئ في الحجرة الثانية، حتى يأتي فأفاجئه... وباحتراس شديد فتحت الباب الذي يفصل بين الحجرتين، وسمعـت همسًا فتعجبـت للأمـر وأردت أن أعود بخطواتـي للوراء لكن الفضـول دفعني إلـى الأمام، فإذا بصديقي وفتاة أخـرى لم أتبينها في وضـع مريـب يتهامسـان... وحاولـت الانصـراف دون أن يلمحني أحد منهما، لكن مصطفى رآني، وما إن وقعت عينه على عيني حتى أسرعت الخطوات، وخرجت من المكتب أخفي داخلي ألمًا يمزق قلبي.

فكرت كثيـرًا قبل انتهاء إجازتي: هل أذهب إليه وأحدثه في الأمر أم أتجاهل ما رأيت وأعود إلى حيث كنت وكأن شيئًا لم يكن؟!... إنه كبير بما

فيه الكفاية ليعرف الصحيح من الخطأ، فماذا عساني أقول له. وتذكرت بيتـه الهانئ وزوجته المحبة له وأطفاله الصغار... يا له من غبي!.. كيف يقدم على مثل هذا الأمر، وفيه خراب بيته وتشتت أسرته؟!!..

فـي الأخير لـم يطاوعني ضميري، فذهبت إليـه بدافع الصداقة التـي تربطنا، فتحت الباب فإذا هـو جالس يفكر كأنه ينتظرني، ألقيت السلام عليـه ثم جلست وراء مكتبي مقابلاً إياه كما كنا دائمًا... مكثنا بعض الوقت صامتين لا يجـرؤ أحدنا قطع الصمت الـذي خيم بيننا، وحين هممت بالحديث قال مطأطئاً:

«أعـرف ما ستقوله... أنا آسف جداً... لم أتوقع مجيئك، فترى ما رأيت!!...

فقلت غاضباً:

«حتى لو لم أرك، فإن الله يراك... ألم تخجل من نفسك؟!..».

صمت ولم يجب، فواصلت معاتبًا:

«أردت الاختباء بتلك الحجرة؛ لأفاجئك بزيارتي... يا لسذاجتي!.. لو تعلم كم كنت أعتز بصداقتك قبل الآن، وكم كنت أحترمك..».

فقاطعني، قائلاً:

«أرجـوك، دع صداقتنـا جانبًـا، فـلا أريـد لأي شـيء أن يمسهـا بخدشـ... إنني أعتـرف بخطئي، لكنك لو رأيتها حيـن تأتي يوميًّا إلى مكتبـي تثيرني بكلماتهـا ونظراتها... لقد قاومـت إغراءها، لكنني في النهاية استسلمت».

فقلت ساخراً:

«أهــي من أغرتــك أم أنت من أغراهــا؟!.. لا يمكــن لأي امرأة أن تتجرأ على رجل إن لم تجد منه استعدادًا ومساعدة».

قال، وقد بدا الألم في عينيه:

«حاولــت أن أصــد عنها نفسي فــي البداية، لكنها أبــت عليّ، كلما وجدتهــا أمامــي ازداد اللهــب استعــارًا فــي داخلــي، وازداد شعــوري بالضعف... الضعف الذي حدثتك عنه ذات يوم».

فقلت ونظرات الازدراء في عيني:

«رب عذر أقبح من ذنب».

صمــت كلانا، وفي أعماق كل واحد منا نار تتأجج، ولم أطق صبرًا، فصرخت في وجهه قائلاً:

«زوجتــك وأولادك ألــم تفكر فيهــم؟!... ألم تفكر فــي بيتك الذي ستكــون سببًا في خرابه لو علمــت زوجتك بما اقترفت يداك؟!... أليس بيتك كل شيء في حياتك؟!!..».

فقال والدمع يوشك أن يفيض من عينيه:

«ستكون النهاية لو علمت زوجتي..».

ثم أضاف:

«لكنها لن تعلم بالأمر، إنها غلطة ولن تتكرر أبدًا».

هدأت حين سماعي هذه الكلمات، ثم سألته في إشفاق:

«هل أنت واثق أن الخطأ لن يتكرر؟».

صمت ولم يجب، فأدركت أن الخطأ سيتكرر حتمًا ما دامت أسبابه موجــودة، فأطرقــت أفكــر ثم نظــرت إليه فآلمنــي حاله، وقــد ارتسم الصراع الذي بداخله على صفحة وجهه، فقلت بنبرة هادئة:

«وهي... الفتاة التي كانت معك من تكون؟..».

أجاب خجلاً، وتلك الصورة التي رأيته عليها ماثلة بين عينيه:

«هي... هي زميلتنــا «غنية»... الفتاة التي وظفــت بشركتنا أشهرًا قبل ذهابك».

«أذكرها... الفتاة اللعوب التــي توزع ضحكاتها على كل الرجال... هي غير مرتبطة، أليس كذلك؟».

«بلى».

«وماذا تنتظر منك؟».

«لا شيء».

فقلت متعجباً:

«كيف لا شيء؟!... ألا ترى فيك زوج المستقبل؟».

رفع بصره نحوي، وقال:

«أخبرتها أنني متزوج وأب لخمسة أطفال».

فقلت بسذاجتي المعهودة:

«ربما تريد أن تكون الزوجة الثانية لك».

فرد موضحًا:

«حدثتها عن غيرة زوجتي، وأنه من المستحيل الزواج عليها؛ حرصًا على بيتي وأطفالي».

عجبت لأمرها أكثر وقلت مستفسرًا:

«سبحان الله!.. وما دفعكما إلى ذلك الفعل والزواج بينكما غير وارد؟!!..».

فقال مطأطئًا مرة أخرى:

«الحب بيننا متبادل، وهي لم تجد مانعًا من... من تمضية وقت ممتع معًا..».

ونظر إليّ بطرف عينه، فرأى على وجهي علامات الاستفهام والتعجب تحاصره ونظرة منكرة كالسهم، اخترقت ضلوعه لتستقر في قلبه، فاضطرب في جلسته ثم وقف يحدثني بعصبية بالغة محاولاً إخفاء اضطرابه:

«إننا لسنا ملائكة، بل بشر نخطئ أكثر مما نصيب، والضعف فينا مكين، قد نسيطر عليه وننتصر فنزهو بقوتنا وثباتها، لكننا نستسلم لضعفنا أحيانًا أخرى فنرتكب أخطاء تمرغنا في الوحل...

إنني رجل ضعيف أمام المرأة، ربما كأغلب رجال الكون، ولست أملك القوة الكافية التي تردعني عن الخطأ إذا اجتمعت كل الأسباب التي تغريني بالوقوع فيه..».

وصمت يلتقط أنفاسه، فقلت هادئًا لا أرفع بصري عنه:

«وتقوى اللّه؟!... ألم تستشعر رقابته عليك وأنت تأتي الحرام؟!... ألم تستحِ منه؟!... ثم غضبه وعقابه ألا تخشاهما؟!..».

فقال مطرقًا:

«اللّه أعلم بضعفنا، وهو أرحم بنا من أنفسنا».

«لكن... ألا تخشى عواقب ما فعلت؟».

«لم يعلم بالأمر أحد سواك».

«لا أقصد ذلك».

«وماذا تقصد؟!»

«ألا تخشى..».

ولم أستطع إكمال الجملة، فبرغم صداقتنا الوطيدة إلا أن الاحترام كان متبادلاً بيننا. فسكتَ، وكأنه فهم ما أرمي إليه، فقال:

«لا تخشَ من هذه الناحية، فنحن لم نأتِ ما يشكل خطرًا على أحدنا... أنت تعرف مخترعات هذا العصر..».

وابتسم، فاستنكرت ابتسامته في مثل هذا الموقف، وقلت معقباً:

«إنك تحوم حول الحمى وتوشك أن تقع فيه، وكلاكما يلعب بنار لن تحرق سواكما».

غضب مصطفى من محاسبتي لأفعاله، وشدة تقريعي لشخصه، فصرخ في وجهي قائلاً:

«من حقي أن أستمتع بحياتي وأنهل من متع الدنيا، إن لي قلبًا يخفق بين جانبي ككل البشر، وكوني متزوجًا لا يمنع أن تكون لي علاقات

عابــرة ومغامرات أستعيد بها شبابي الذاهــب... لا أنت ولا أي شخص آخر يستطيع أن يحرمني من هذه المتع..».

«وزوجتك؟!».

«مكانتها محفوظة في قلبي، وهي في بيتها معززة لا ينقصها شيء».

«وربك الذي هو رقيب عليك؟!..».

«سيغفر لي؛ لأنني لا أضر أحدًا».

«إنك تضر نفسك».

«بـل أنساق وراء ضعفــي الذي ركبه الله فيّ وجعلــه جزءاً لا يتجزأ مني... أنا لا أحب تعذيب نفسي بصراع مرير مع عواطفي، أعلم مبدئياً أنني سأخسر في النهاية».

وسكـت على مضض برغم تزاحم الكلمات على لساني، فقد بدا لي متناقضـ الأقوال، مشتــت الأفكار، فنهضت من مكانــي، واقتربت منه وقلت أربت على كتفه في رفق:

«إنني صديقك الحميم يا مصطفى، ولست أحدثك بهذه الشدة إلا لخوفــي عليك، أرجوك أن تعيد النظر فيما فعلت وتتوب من ذنبك؛ لئلا يحل غضب اللّه عليك. إن في نفسك بذورًا طيبة كثيرة لا تردمها بتراب شهواتــك وأهوائــك، ولا تدع الشيطان يمتلــك فيهلكك، فتندم حين لا ينفع الندم».

هممت بالانصراف، فقال ضاغطاً على يدي بقوة:

«أشكرك أيها الصديــق المخلص، في زمن قلّ فيه الأصدقاء، فما من أحد يقلقه أمري مثلما يقلقك أنت... أيها الضمير المزعج..».

وابتسم فرددت ابتسامته بأحسن منها، ثم قلت قبل أن أنصرف:

«هل تعدني بشيء؟..».

«ماذا؟!..».

«ألا تقرب هذه الفتاة مرة أخرى!!..».

فقال يتبعني إلى الخارج:

«أعدك؟!... لا أستطيع... لكنني سأحاول إخراجها من حياتي..».

افترقنـا ذلك اليوم، وعدت إلى البلـدة البعيدة، حيث بقيت أشهرًا طويلـة بدت لي دهـرًا، إذ كثيرًا ما أتذكر مصطفـى، فأخشى عليه من شر نفسه.

عـدت أخيرًا إلى عملـي، وما إن وطئت قدمـاي أرض الشركة حتى استقبلنـي زملائي بالترحيـب لطول غيابي، ولم يلبـث أحدهم أن مال علي وشدني من ساعدي، وقال بعد أن انزوى بي بعيدًا عن الآخرين:

«هل سمعت ما حل برفيق مكتبك؟».

فقلت مندهشاً:

«مصطفى؟!».

فرد، وابتسامة ماكرة على شفتيه:

«نعم، مصطفى، ومن غيره».

فقلت فزعًا:

«هل حدث له مكروه؟».

فقال ساخرًا:

«بل هو من أحدث مكروهًا!!..».

«ماذا تقصد؟!..».

«كل الشركة تتحدث عن فعلته مع الزميلة غنية، أظنك تذكرها..».

وكدت أفهم كل شيء حين همس الزميل في أذني:

«كان علـى علاقة آثمة بها في الخفـاء، لكنها حملت منه، فافتضح أمرهما».

شخصت عيناي فيه، وصرخت:

«حملت منه؟!..».

قال متلذذًا بنقل الخبر إليّ:

«نعم، وحضر أهلها يهددون ويتوعدون أن يقتلوه إذا لم يتزوجها».

فسألته، وقد تصبب العرق على جبيني:

«وهل تزوجها؟!..».

«بالطبـع... إنك لم ترَ الشرر المتطاير من أعينهم حين جاؤوا إلى هنا يبحثون عنه... لقد خيروه بين الزواج بها أو قتله... فالعار لا يمحوه سوى الدم... هذا ما قالوه..».

ثم همّ بالانصراف، خاتماً قوله:

«لقـد كان حدثًا عصيبًا هز شركتنـا... من كان يظن أن مصطفى يجرؤ على مثل هذا الفعل؟!..».

شعـرت بثقـل قدمَي أعجزني عـن الوقوف، فاستنـدت إلى الحائط أمسـح عرقـي... بخطى بطيئة توجهـت إلى المكتب، وجـدت مصطفى جالسًـا يقلب بعض الأوراق، حين وقع بصـري عليه هالني شحوب وجهه وتركـه للحية تنمو على وجهـه في غير انتظام. نهض وسلّم علي بحرارة، فبدا لي في هيئة غير التي عهدتها عليه، وكأن الهرم غزاه مرة واحدة.

شعـرت وهو يضمني إلى صـدره بقوة كأنه غريق يضـم إليه قارب نجاة عثر عليه فجأة بين أمواج البحر العاتية.

قال محاولاً إخفاء دموعه:

«الحمـد لله على سلامتـك يا رؤوف... ما هـذه الغيبة يا صاحبي، اعتقدتك لن تعود أبدًا».

فقلت مداعبًا والحزن بادٍ في نبرة صوتي:

«ها قد عدت... لا أستطيع أن أتركك وحيدًا في هذا المكتب».

وصمتنـا لا يعلم أحدنـا كيـف يبدأ الموضـوع، وهممـت أن أسأله سـؤالاً واحـدًا: هل علمت زوجتـه بالأمر؟!. لكن قرعًـا قويًّا على الباب أربكنـي، ودخلت سيدة في نحو الأربعين لم يقـع بصر مصطفى عليها حتـى رأيت وجهه يتغير إلى أن أضحى كأوجه الموتى، وتسمّر في مكانه كمن تعرض لضربة قاضية، ولم تمهله حتى قالت دون مقدمات:

«فـي هـذا الصباح، وأنـا أزور الطبيب، سمعت نسـاء يتحدثن عن موظـف يعمل بهـذه الشركة كيف غـرر بفتاة تصغـره بسنوات فحملت منه، وأن أهلها هددوه بالزواج منها أو قتله فتزوجها واستأجر لها غرفة صغيرة في انتظار أن يجد لها مسكنًا..».

وسكتت تبتلع دموعها وتحاول التحكم بأعصابها، ثم واصلت تقول:

«عندمـا سألت إحدى النساء عن اسم هـذا الحقير، ذكرت المتحدثة اسمًـا أعرفه جيدًا... ولم تكتفِ بذكر الاسم فقط، بل أسهبت في الحديث عـن زوجتـه وأطفاله وبيته... هن يعلمـن كل شيء وأنا المغفلـة لا أعلم ما يجري في عقر داري... وجئتك الآن لأسألك سؤالاً واحدًا: هل ما قيل عنك صحيح؟... لا أريد سماع التفاصيل، أريد جوابًا مختصرًا: نعم أم لا؟!..».

نظـر ناحيتي كأنه يستنجد بي، لكنني لم أحرك ساكناً، إذ أدركت أن زوجته بقدر حبها له وغيرتها عليه سيكون عقابها.

استجمع مصطفى ما تبقى من شجاعته، وقال بصوت أشبه بالهمس:

«نعم!!..».

شعرت بها تغلي كبركان يوشك أن ينفجر، وهي تقول:

«أتأتـي هذا الأمر الشنيع، وأنا معك بكل الحب الذي أحمله لك في قلبي وبكل ما أبذله لإسعادك؟ أتهدم بيتًا عامرًا عمره عشر سنوات في لحظـة طيش عابـرة ومن أجل متعة زائلة؟!... أهـذا جزاؤنا؟! هل هذا دليل حبك لبيتك وأطفالك؟!..».

وأطرقت تستعيد رباطـة جأشها، ثم هدأ بركان غضبها وبحزم لم أعهده في امرأة قالت:

«فـي المسـاء عنـد عودتك ستجـد كل أغراضـك معـدة، سأخبر الأطفـال أنك مسافر سفـرًا بعيدًا قد لا تعود منه... وأريد ورقة طلاقي في الغد... لقد انتهى ما بيننا... وإلى الأبد».

وفتحـت الباب تنوي الخروج، فإذا بها وجهًا لوجه مع هادمة عشها ببطنها المتكورة، تبادلتا نظرات ملتهبة، ثم وجهت لزوجها نظرة احتقار لـو وزنت في ميزان الأسلحة لأردته قتيلاً مفـكك الأعضاء والخلايا... وخرجت لتتبعها الثانية بعد دقائق قليلة، وهي غاضبة أيضاً.

ألقـى مصطفى جسـده على الكرسي، وأخفى وجهـه بين راحتيه، وراح يبكي بكاء الأطفال، ويقول بصوت خنقته العبرات:

«أرجوك يا رؤوف، لا تتخلَّ عني، لقد خسرت كل شيء في حياتي... كل شيء..».

فأمسكت يده المرتعشة، وضغطت عليها بقوة قائلاً:

«لن أتخلى عنك أبدًا يا صديقي... لن أتخلى عنك..».



غريب

جلس غريب إلى ظل شجرة يلتقط أنفاسه، ثم نظر يمنة ويسرة؛ عله يرى أحدًا، لكنه لم يبصر غير أرض ممتدة الأطراف وشجيرات متفرقة تتخللها بيوت متناثرة تبدو كأنها خالية من السكان، يقطع تلك الأرض طريق طويلة ترتادها آلات غريبة تمر بسرعة رهيبة. ألقى بصره على امتداد تلك الطريق، فإذا ظلال مرتفعة عن الأرض تظهر صغيرة من بعيد، نهض يسرع الخطا نحوها وابتسامة عريضة تتوج وجهه البشوش.

وصل المكان، فإذا تلك الظلال بنايات لمدخل مدينة، توغل فيها، فكثر عدد الناس المنتشرين في شوارعها، وازداد عدد المحلات والمساكن، وكثر الضجيج وكأنه يدخل سوقًا عامرة.

كان غريب يقطع شوارع المدينة وعيناه معلقتان بكل شيء يراه... يا لدهشته!!... هل هو مستيقظ أم نائم يهذي بأضغاث أحلام لا وجود لها في الواقع؟!...

أخذ يمرر بصره على ما يجده أمامه وهو يحدث نفسه، قائلاً:

«يا إلهي!... أين أنا؟!... كل شيء هنا جميل ورائع... هذه المحلات التجارية بواجهاتها البراقة وخلفها تلك الألبسة والأحذية واللعب، وحتى

المأكولات الشهية... وهذه البنايات الشامخة تجاورها الحدائق الغناء، ما أجمل أشجارها وزهورها!.. لا أكاد أصدق ما تراه عيني، ألست فوق الأرض أسير أم انتقلت إلى كوكب آخر في فضاء الله الواسع؟!... أكيد أنني لا أزال على الأرض، فهؤلاء البشر مثلي صحيح أنهم مختلفون عني في كل شيء لكنهم بشر... لكن، لماذا يسرعون هكذا؟!... ولماذا العبوس والتجهم على محياهم كأنهم ناقمون على الدنيا كلها؟!... لكم أبدو بطيئًا وغريبًا بينهم».

كان المارة يتدفقون جيئة وذهابًا بسرعة، وكلما مرّ به أحد حدجه بنظرة غريبة مستفسرة كأنه يقول:

«من هذا الشخص الغريب بينها؟!». لم يكن شكله غريبًا، لكن لباسه كان وراء نظرات الناس إليه، فهو لا يرتدي بنطالاً وقميصاً ككل الذين رآهم، بل جبة طويلة ربطها في وسطه بحزام عريض وعباءة فضفاضة، كما يضع على رأسه عمامة مهيبة، وينتعل حذاء بسيطاً لا يمكن العثور على مثله في كل محلات المدينة.

لم ينتبه «غريب» لنظرات الناس إليه، فعقله منصرف إلى ما تقع عليه عينه في انبهار شديد، وازدادت دهشته حين رأى ما ترتديه النساء من لباس فاضح يكشف فتنة أجسادهن، ويعري عن صدورهن وأرجلهن في جرأة كبيرة، وقد بدون بأوجههن الملطخة بالمساحيق كأنهن دمى يتحركن لنشر الفتنة وإشعال نيران الشهوة الحيوانية لدى الرجال. طأطأ غريب رأسه خجلاً، ثم رفعه فإذا بشابين يتوقفان عنده وهما يتهامسان، قال أحدهما:

«انظر إلى هذا الرجل، كأنه قادم من عصر هارون الرشيد!!..».

فقهقه الثاني في ابتذال، وأشار إلى غريب بإصبعه:

«بـل كأنه خرج من مسلسلات التليفزيون الدينية!!... ربما هو بطل نسي نزع ملابس التمثيل، حين خرج من الإستديو!!..».

وانطلقـا يضحـكان ويتغامزان حتـى اختفيا عن الأنظـار، وهمس غريب مشدوهًا:

«لقـد فهمت ما يقولانـه، إنهما يتحدثان بلســان عربي برغم بعض الكلمات التي لم أفهمها».

وانتبه إلى اللافتات التي تزين المحلات وإشارات المرور وغيرها، فـإذا هي مكتوبة بخط عربي واضح استطاع أن يقرأه في يسر، ولم يدرِ هل يفرح أم يحزن؟... لقد اعتقد جازمًا أنه على أرض أعجمية، أفيعقل أن يشعر بتلك الغربة، وهو في بلاد عربية؟!..

وتساءل بينه وبين نفسه:

«هل هؤلاء القوم مسلمون؟».

انطلق يمعن النظر في أوجه المارين، ويراقب سلوكياتهم، ويحاول سمــاع أحاديثهم؛ بحثًا عن هويتهم الدينية، ولم يجد أثرًا للإسلام في كل مــا وقعت عليه عينـه، فالنســاء ســافــرات لا يدري تحديدًا هل هن كاسيات أم عاريات؟!... أما الرجال فمتجهمو الوجوه، لا يلقون السلام، يذهبــون ويجيئون كالغرباء ليس بينهم علاقة ولا تربطهم رابطة، وعلى

الطرقات ينتشر المتسولون والأطفال المشردون. اعتقد غريب أنه وسط قوم عرب يدينون بغير الإسلام، ولم يستطع الجزم بذلك، فرفع بصره يحملق في البنايات المتراصة بعضها إلى جانب بعض يبحث عن مبنى بعينه، قائلاً في نفسه:

«سأبحث عن بيوت اللّه... عن المساجد، إذا وجدت مسجدًا تقام فيه الصلاة دل ذلك على أنني في أرض مسلمة».

مشى غريب يعبر الطرقات والمسالك؛ باحثًا عن مسجد بين الأعين التي لا تزال ترمقه بنظرات تعجب واستفهام، ولمح فتاة تقبل في الاتجاه المعاكس له ترتدي لباساً طويلاً يغطي كامل جسدها وتخفي شعرها بخمار أبيض يتدلى على كتفيها، فانفرجت عن شفتيه ابتسامة عريضة، ولما اقتربت منه أطلق لسانه، قائلاً لها:

«السلام عليكم».

فابتسمت الفتاة، وهي تنظر إلى زيه ثم ردت:

«وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته».

شعر الغريب بسعادة عظيمة حين داعبت هذه الكلمات أذنيه، وقال بفرحة تلألأت في عينيه:

«الحمد للّه... إذًا فأنا على أرض عربية وأهلها مسلمون!!..»..

«ماذا؟!..». قالت الفتاة مشدوهة.

«هل لي أن أسألك يا ابنتي... أين أنا؟..».

فازدادت دهشة الفتاة، وقالت:

«أين أنت؟... ألا تعرف أين أنت الآن؟!!..».

«لا أعــرف، لقد بعثك الله لي لتجيبينـــي على أسئلتي... أنت عربية مسلمة، أليس كذلك؟..».

«بلى..».

«وكيف يسمى هذا المكان الذي نحن فيه الآن؟».

«أنت في مدينة سين».

«سيــن؟!!... لــم أسمــع بها قط!! علــى أي بقــع الأرض تقــع؟!... أقصد..».

فقاطعته الفتاة، وقد نفد صبرها:

«إذا كنــت لا تعرف اسم هــذه البلدة وموقعها، فكيف وصلت إلى هنــا إذًا؟..».

فصمت غريب، ولم يدرِ كيف يجيبها وأخذ يتمتم بصوت خافت:

«كيف وصلت إلــى هنا؟!... لا أدري!! كنت نائمًا وعندما استيقظت هــذا الصباح وجدت نفسي عنــد مدخل هذه المدينــة تملؤني الدهشة مــن كل ما أراه، فهو عالــم يختلف عن العــالــم الــذي عشت فيه... كل شيء هنا مختلف تمامًا... يا إلهي، ماذا يحصل لي؟!... كيف جئت إلى هنا؟!... لا أستطيع أن أجيبك؛ لأنني نفسي لا أعرف الجواب..».

فضحكت الفتاة، وقالت بنبرة اختلط فيها الجد بالمزاح:

لا بد أنك مسافر عبر الزمن!!... ألم يدخلوك في آلة تخترق الزمن والمكان وتسافر في الحاضر والمستقبل وتكشف حياة الناس في ماضيهم الغابر أو تتنبأ لهم عن مستقبلهم الغامض؟!..»..

فنظر إليها الغريب نظرة عتاب، وقال لها:

«أتهزئين بي، وقد توسمت فيك الخير وانتظرت منك العون، وأنت تتحدثين بلساني وتدينين بديني؟».

فاعتذرت متوسلة:

«أرجوك سامحني، فأنا لا أهزأ بك، وإنما شاهدنا أفلامًا كثيرة عن السفر عبر الزمن حتى اعتقدت أن الخيال أصبح حقيقة، فكل شيء ممكن في زماننا هذا».

«هلا أجبتني على سؤالي رجاء؟!..».

وحددت له الفتاة موقع المدينة وحدود الدولة التي تنتمي إليها، وبعدها عن الدول الأخرى، وحدثته بإسهاب عن جغرافيا القرن العشرين، ونظرت إلى الساعة، فارتبكت وقالت للغريب:

«أرجو أن تسامحني، لكن لدي امتحان مهم، ويجب أن أسرع للوصول إلى الجامعة، معذرة يجب أن أذهب».

وانطلقت كالسهم تخترق جموع الغادين والرائحين وفي عينيها أسف عظيم؛ لأنها لم تعرف شيئًا عن هذا الرجل ولم تستطع مساعدته إلا قليلاً.

وتابع غريب طريقه يبحث عن ضالته، حتى توقف فجأة أمام بناية مميزة بمنارتيها وقبتها وقرأ فوق بوابتها الرئيسة:

«مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فحمد اللّه كثيراً ثم أسرع بدخوله، فوجد الباب الخارجي مغلقًا، واحتار أيمكن أن تغلق بيوت اللّه أمام عباده؟!!».

وتشجع مرة أخرى، وسأل أحد المارة:

«ألا يفتح المسجد للصلاة؟».

فأجابه:

«إن المساجد لا تفتح إلا في مواقيت الصلاة وتغلق دون ذلك».

«لكن بيوت اللّه هي المكان الوحيد الذي يجب أن يبقى مفتوحًا طوال الوقت يقصده الناس متى شاؤوا فلم يجبه أحد، فقد اختفى الرجل عن ناظره كأنه يسابق الزمن.

جلس غريب أمام المسجد ينتظر صلاة الظهر، وشعر بالجوع والعطش، فنظر حوله يستطلع المكان، فوقعت عيناه على محل واسع يكتظ بالناس، فغادر مكانه متوجها إليه، وعندما دخله شعر بالأعين ترمقه في فضول ودهشة، اخترق جموع الجالسين واتخذ له مجلسًا على طاولة فارغة في ركن المقهى وبقي ينتظر، وسمع صوتًا قويًّا غطى أصوات الجالسين وطغى على جلبتهم وضوضائهم، فرفع بصره يبحث عن مصدر الصوت، فإذا بجهاز معلق على الحائط يتحدث وصور تتناوب في الظهور على مربع زجاجي، وفغر فاه من الدهشة وهو يراقب

المناظـر المتلاحقة وينصت إلى الصوت فـي اهتمام شديد، واختفت تلـك الصور التي أبهرته لتظهـر امرأة جميلة تحمل بين يديها حزمة مـن الأوراق تحـوي أخبار العالـم الذي حل به، وبهـت لسماع ما يجري هنا وهناك:

«حـروب، فتـن، مجاعات، انقلابـات، حرائق، فيضانـات، أسلحة نوويـة، اختراعـات جديـدة، آلات غريبة...، ما كل هـذا؟! ما يحزن في هذا العالم أكثر مما يفرح!!..».

ونـزف قلبه في صدره حين ظهرت القدس بمسجدها تعاني أغلال الاحتلال الصهيوني، ودمعت عينه لمرأى الأطفال وهم يرمون الغاصب بالحجارة والنساء ينتحبن، وقال في نفسه:

«القدس في يد بني إسرائيل؟! والمسجد محاصر بالكفار؟!... أين العـرب والمسلمون؛ ليحرروا هذه البقعـة الطيبة من الذل المهين؟!... ألم تلد النساء في هذا الزمان صلاح الدين؟!... يا إلهي، أهذا مستقبل خير أمة أخرجت للناس؟!... ليتني لم أره... ليتني لم أعرفه..».

ومســح دمعه الغزير وواصل رؤية الأخبار، فـإذا بالمسلمين في كل مـكان يعانـون، يحيط بهـم الأعداء مـن كل جانب يبغـون إبادتهم عن آخرهـم وإخراس صوتهم إلى الأبـد، وشعر بالإسـلام غريبًا في هذا العالم الجديد، وابتسم ابتسامة ساخرة بينه وبين نفسه، وهو يقول:

«اعتقـدت أننـي الغريب الوحيد بهذه البلدة وهأنـذا أرى بأم عيني غربـة كل المسلميـن، بل غربة الإسلام في هـذه الغابة المتوحشة التي يسمونها الأرض».

وتوجه إليه صاحب المقهى، وسأله قائلاً:

«ما حاجتك؟!».

فقال غريب وهو لا يزال متأثرًا بما شاهده:

«إنني عطشان، وأكاد أموت جوعًا، فهلا أطعمتني وسقيتني لوجه الله تعالى؟».

نظر إليه الرجل باستغراب، وقال له:

«وهل لديك المال لتدفع؟».

«لا.. لا أملك درهمًا واحدًا... إنني عابر سبيل وغريب عن هذه البلدة، لكنني عربي مسلم مثلكم أفلا أجد حاجتي عندكم؟!..».

فرمقه الرجل بنظرة شزراء، وقال:

«نحن لا نسقي إلا من يدفع مالاً وليس للمتسولين أي مكان عندنا... هيا انصرف..».

فخرج الغريب وقلبه يعتصر ألمًا، محدثًا نفسه:

«متسول؟!... سامحه الله... ما هذه القسوة؟... أهذا مسلم؟ لا.. أبدًا، لا يمكن أن يكون مسلمًا من لا يرحم خلق الله، ولا يبادر إلى مساعدتهم».

ومشى بضع خطوات حين وجد نفسه أمام مطعم تفوح منه رائحة طعام شهية زادته إحساسًا بالجوع، ونظر إلى الداخل يريد الدخول لكنّ

قدميـه أعجزتاه عـن الحركة وكلام الرجـل الأول يصم أذنيه، ولاحظ صاحـب المطعم تردده، وهو أمام باب محلـه فأقبل نحوه وأمسك بيده يصافحه بابتسامة عريضة كأنه يعرفه:

«هل لك حاجة أيها الشيخ الجليل؟».

فتمتـم الغريب بكلام غيـر مفهوم، فقال له الرجـل وهو يجره إلى الداخل:

«تفضل بالدخول، وسنرى حاجتك... هيا اجلس هنا».

أجلسه علـى طاولة بمفرده، وحوله النـاس يأكلون ويتحدثون، وما هـي سوى لحظات حتى جيء لـه بطعام شهي وقارورة من شراب لذيذ، وقال له صاحب المطعم:

«هيا تفضـل بالهناء والشفـاء... لقد اخترنا لك أحسـن أطباقنا؛ عسى أن يعجبك طعامنا».

وأحسـ الغريب بحـرج شديد، فوقف وهو يقـول لصاحب المطعم متأهبًا للانصراف:

«اسمع يا سيدي... أشكرك على لطفك، لكنني لا أملك درهمًا واحدًا، ولا أستطيع دفع ثمن هذا الطعام، فاسمح لي بالانصراف رجاء».

دفعه صاحب المطعم للجلوس، ثم قال:

«يبـدو أنك غريـب عن مدينتنا، وربما لم تـذق شيئًا منذ الصباح، فدعني أقم بواجب الضيافة، ولا أطلب منك شيئًا آخر غير الدعاء».

«الدعاء؟!..».

«نعم... الدعاء لنا بخير الدنيا والآخرة، فإني أرى في وجهك سمات الرجل الصالح، وإنك لتذكرنا بمظهرك وإشراقة وجهك بالرعيل الأول من أصحاب الرسول ﷺ».

فاغرورقت عينا غريب بالدموع، واختنق صوته وهو يردد: ﷺ.

وأجلسه مضيفه في مكانه، وجلس قبالته يحادثه؛ ليزيح عنه مشاعر الألم والغربة التي صاحبته منذ حل بهذه البلدة، ودعاه للأكل، فاستجاب غريب وذكر اسم الله وهو يمد يده إلى الطعام، وما كف عن حمد الله وشكره على فضل لقائه بهذا الرجل الطيب الذي داوى بكرمه الجرح الذي أحدثه الرجل الأول في قلبه، وجعله يغير نظرته إلى أهل هذه المدينة.

في أثناء احتساء القهوة سأله الرجل قائلاً:

«أنت لست من هنا، أليس كذلك؟».

«بلى».

«ولم زرت مدينتنا، وأنت لا تعرف أحدًا فيها؟!»

«ربما أراد الله أن يريني حال المسلمين بعد سنوات، لهذا جاء بي إلى مدينتكم... يا إلهي، كم اشتقت إلى زماني وأهلي..».

«وما زمانك؟!... وأين هم أهلك؟!!..».

فسرح غريب بخياله بعيدًا، وقال:

«أهلــي... لســت أدري أيــن هم، ولا كيــف تركتهم، لكنهــم بسطاء يعملــون ما استطاعوا بكتــاب الله وسنة رسوله ﷺ أما زماني فهو زمان الرحمة والحب والسلام، هو زمان يعمل أهله للآخرة ويعيشون دنياهم فــي سعادة ورضى بأرواح معلقــة بخالقها وقلوب متألقة وأجساد عفيفة تعاف الحرام، وتتقي الله في كل أحوالها... هذا هو زماني..».

«كيف يسمونك؟».

«اسمي في دنياكم هذه – غريب- وأنا غريب بينكم ما لم أعد إلى زماني، فأنعم بطيب العيش مع أهلي».

فسأله صاحب المطعم، وهو لا يكاد يفهم معنى واضحًا لكلامه:

«هل لك حاجة الآن؟».

«ليســت لي حاجة سوى أن أذهب إلــى المسجد أدعو الله أن يلطف بي ويعيدني لأهلي، فأنا لا أستطيع العيش معكم».

وقال الرجل مداعبًا:

«أتنصرف دون أن أعرف شيئاً عنك؟».

فرد الغريب مبتسماً:

«لا تستطيع أن تعرف شيئًا عني؛ لأنني غير موجود في دنياكم هذه، دعني أذهب يا بني، فقد ضقت بعالمكم، وزهدت في دنياكم، ولم أمكث بينكم إلا ساعات قلائل..».

وهمَّ بالنهوض، فاستوقفه الرجل قائلاً:

«ألا تنصحني قبل أن تغادر؟!..».

فربت غريب على كتفه قائلاً:

«لـن أنصحـك بأكثر ممـا نصحنا به رسـول الله ﷺ عليك بكتاب الله وسنة رسولـه ففيهما الدواء لكل داء والخلاص من كل كرب وعناء وفيهما سعادة الدنيا ونجاة الآخرة».

شكـر الغريب الرجل على كرمه ودعا له بكل ما هو خير، ثم مضى عائدًا أدراجه إلى المسجد، ولم يكد يصله حتى دوى صوت الأذان يملأ أرجـاء المدينة، ينـادي الناس للصلاة، فشعر بالحيـاة تدب في نفسه وزاده دخـول النـاس إلـى المسجد وإسراعهـم لتلبية نـداء الله فرحًا وسرورًا، فدخل مـع الداخلين وتوضأ للصلاة وقلبه معلق بربه، ولاحظ أنـه برغم اتساع المسجـد ورحابة قاعة الصـلاة إلا أنه لم يقف خلف الإمـام إلا عدد قليل من المصلين، قياسًا إلـى العدد الكبير من البشر الذيـن تزدحم بهم الشـوارع، ودفعه الفضول لإلقـاء نظرة إلى الخارج قبـل قيام الصلاة، فإذا الشارع لا يزال مكتظـاً بالرجال والنساء... لا يأبهـون بالصلاة وكأنهم غيـر مطالبين بها وليسوا معنييـن بأدائهـا، وأسـف «غريب» أن جرفت الدنيا أغلب الخلق وشغلتهـم عـن عبادة الله التي هي التجارة الوحيدة المريحة للإنسان، وتمتم يقول:

«الآن عرفـت سـر عجلتهم وعبوس أوجههم وقسـوة قلوبهم... لقد نسوا الله فأنساهم أنفسهم».

واشتـدت دهشتـه حيـن سارع الإمام فـي الركـوع والسجود، حتى إنـه ختم الصلاة في وقـت قصير، وتزاحم النـاس علـى باب الخروج،

ليصبح المسجد فارغًا في لحظات قليلة!!... وجلس غريب القرفصاء وسط المسجد والدهشة بادية على وجهه:

«السرعة حتى في الصلاة!!... يبدو أنه عصر السرعة حقًّا... لقد نزعت البركة من أوقاتهم، يا له من جيل تعيس لم يعرف الله فحرمه من متع كثيرة!».

ولم يرد غريب الخروج، وبقي يصلي ويقرأ القرآن ويدعو الله أن يعيده إلى حيث الحياة الفطرية البسيطة مع قومه، ويستمتع بلذة القرب من الله في تلك الأجواء النقية. وقطع عليه عامل المسجد مناجاته مع ربه، وطلب منه الخروج لغلق المسجد، فقال له غريب:

«بالله عليك، دعني للحظات قصيرة، أصلي ركعتين فقط، ثم أخرج».

فقال العامل:

«حسنًا، لكن أسرع، سأذهب لإغلاق النوافذ ثم أعود، لا تجعلني أنتظر كثيرًا فأنا على عجلة من أمري ولا وقت لدي..».

وذهب تاركاً (غريب) واقفاً في الصلاة، سابحًا في آفاق علوية رحبة وروحه أقرب ما تكون من خالقها، وبللت دموعه وجهه المشرق الوضيء وهو يتلو آيات القرآن الكريم، فتهتز له نفسه ويضطرب لها قلبه فتزيده خشوعًا لله وطمعاً في رحمته، وعندما عاد إليه العامل يستعجله للخروج كان قد غاب عن الأنظار، ورحل عن هذه الدنيا مثلما أتاها صباح ذلك اليوم.

الشهيد

في يوم عاصف شديد البرودة جلست قرب المدفأة أنظر في عيني جدتي البريئتين، وأعجب من التجاعيد التي تملأ وجهها، وأسأل نفسي:

«هل حقًّا سأصبح ذات يوم مثلها؟!!..».

وفجأة التصقت بجدتي، قائلة:

«أرجوك يا جدتي، أن تحكي لي قصة!!..».

فقالت وقد فاجأها طلبي:

«قصة!!... إنك لم تعودي صغيرة، فتستهويك قصصي الساذجة، كما أن كتب القصص تباع بالعشرات، وهي تغني عن قصص الجدات والأمهات..».

فقلت لها في إلحاح:

«لا أريد قصصاً عن الخرافات والأساطير التي كنا نسمعها منك ونحن صغار فتخيفنا بأسرارها وعجائبها، لكنني أريد أن تحكي لي قصصًا واقعية عشت أحداثها وتأثرت بها وأكيد أن لديك منها الكثير».

«قصص واقعية؟!!..».

«نعـم يا جدتي... لقد قاربـت الثمانين وأكيد أنـك شهدت أحداثًا كثيرة انتشر صيتها ذلك الوقت، ثم نسيها الناس مع مرور الزمان».

أخـذت تفتش فـي ثنايا ذاكرتهـا؛ علهـا تحيي ما مـات فيها من ذكريات، ثم انفرجت أساريرها عن ابتسامة هادئة وهي تقول:

«ألا تهمك قصص الثورة؟!..».

«الثورة؟!!..».

«نعـم، الثورة الجزائريـة العظيمة، ألا تريديـن أن أحكي لك شيئًا عنها؟».

«بلى، أحب ذلك».

«لن أذهب بعيدًا، سأحكي لك قصة استشهاد جدك... زوجي..».

«وهل كنت حاضرة يوم استشهد؟!».

فاعتدلـت في جلستهـا، ونظرت إلـى اللهب المنبعث مـن المدفأة نظـرات ساهمـة، ولم تلبـث أن سافـرت بذاكرتها إلى الـوراء، وقالت بصوت هادئ جعلني أغوص معها في ماضيها البعيد البعيد:

«كنـت في الخامسة عشرة من عمـري حين تزوجني جدك، أما هو فكان فـي التاسعة عشـرة، شاب وسيـم أسمر البشـرة، أحببته حالما رأيتـه ليلة الزفـاف، أسرني بأخلاقـه الكريمة وطيبة قلبـه، فكان هو الرجـل الأول والأخير في حياتـي.. «العربي»... لو تعلمين كم أحب هذا

الاسم... لذلك عندما استشهد وتركني حاملاً سميت المولود «العربي» حتى لا يفـارق اسم زوجي الحبيب شفتي... إنـه والدك حبيبتي، أطال اللّه عمره... عشت برفقة زوجي عشرين عامًا حياة هانئة سعيدة أنجبت فيها أربعة عشر طفلاً، وكنا نعيش في مزرعة كبيرة نقوم بفلاحة الأرض وتربيـة الأغنام والدواجن، ولم نكن نشتري شيئًا من أسواق القرية، بل نـأكل ونلبس مـا تصنعه أيدينا، كل شيء حولنا بسيـط وساذج يشعرنا بسعـادة لا نظير لهـا... الحياة الفطريـة البسيطة والقلـوب الطاهرة النقية كانا وراء سعادتنا وسرورنا.

تـردد زوجـي فـي صغـره علـى مدرسـة القريـة وكتابهـا، فحفظ أغلـب أجزاء القـرآن الكريم، وتعلم القراءة والكتابـة باللغتين العربية والفرنسية، فأصبح يطالع الصحف، ويقرأ الكتب بشغف شديد، أما أنا فكنت على عكسه لا أعرف القراءة أو الكتابة، لكنني حفظت في صغري بعض سور القرآن أصلي بها، والفضل يرجع لوالدي – رحمه اللّه – فقد كان حريصًـا على تحفيظنا ما تيسر من سور القرآن الكريم، ويضربنا إذا تكاسلنـا عن أداء الصـلاة، كان يقول لنا دائمًا: «يجب أن تحافظوا علـى الصلاة وتحفظوا مزيدًا من كتاب اللّه، فهما دليل هويتنا العربية والإسلاميـة وإلا ذاب كياننـا في كيان الفرنسييـن وانمحى وجودنا من هذه الأرض إلى الأبد».

لـم أكن أفهم شيئًا من كلام والـدي، لكن زوجي أفهمني كل شيء، أخبرني أن بلدًا آخر من وراء البحر أهله كفار طمعوا في خيرات أرضنا، فاعتـدوا علينا وجعلوا شعبنـا عبيدًا بعدما كانوا أسيـادًا، وأنه يريد أن يجعل الجزائر مقاطعة فرنسية تابعة لهم تتكلم بلسانهم وتدين بدينهم،

ومـن أجل تحقيـق هدفهم يسلكـون كل السبل من تقتيـل وتعذيب ونفي وتشريد، وعندما سألت زوجي: لماذا لم أرهم يأتون إلى قريتنا؟ قال:

«إنهـم هنا منذ أكثر من مئة عام يحاولون مسح هذه الأرض وإبادة أهلها ومحو هويتهم، ولا تقوم ثورة إلا سارعوا بإخمادها قبل أن يستفحل خطرها، وهـم يتمركزون أكثر فـي المدن الكبـرى والدوائر الصغيرة وبعض القرى، لكن قريتنـا هذه بعيدة جدًّا عن العمـران وبيوتها قليلة مبعثـرة ومتباعـدة لا يشكل أهلهـا البسطاء أي خطر عليهـم، كما أنها منطقـة جبلية يصعـب الوصول إليهـا لذلك، فهذا المـكان يكاد يكون مجهولاً عندهم».

وصمـت جدُّك «العربي» وهو ينظر إلـى السلسلة الجبلية الشامخة التي تحيط بقريتنا، ثم قال:

«طـاب لهم المقام على أرضنا ويعتقدون أنه أبدي... هم لا يعلمون أن لهـب ثورة عظيمة سيندلع من هذا المـكان، وأننا سنجعل من جبال الأوراس الأشم هذه ديارنا، وستردد بقوة صدى صرخة الثورة».

أذكـر ذلك اليـوم جيداً، أقبـل زوجي بعد غيـاب أسبوعين يرتدي لباسًـا لم أره عليه من قبل ويحمل على ظهره شيئًا غريبًا أفزعني مرآه برغم جهلي به، أجلسني قربه، وقال:

«اليوم هو الواحد من شهر نوفمبر نحن في عام ١٩٥٤، تذكري هذا التاريـخ جيدًا واذكريـه لأطفالنا... لقد أعلنت الثـورة في كامل أنحاء الوطـن، وهذه المرة لـن نستسلم أبـدًا، وقد قررنا جميعًـا: النصر أو الشهادة».

وجمــع أطفاله حوله وكان أكبرهم يومها في التاسعة عشرة من عمره وأصغرهم لم يتجاوز العامين، وأخذ يحدثهم عن الثورة حديثًا مستفيضًا، ولما انتهى توجه إلى ابنه البكر «عمار» وقال له وهو يربت على كتفيه:

«أنت الآن يا عمار، رجـل البيت، أوصيك بالاعتناء بأمك وإخوتك، فأنــت المسؤول عن كل شــيء في غيابي، أما أنــا فسألتحق برفاقي في الجبل، وسآتي لزيارتكم كلما أتيحت الفرصة».

وجمع أغراضه وبعض مــا يحتاجه من الطعام وصعد الجبل لنبقى في البيت وحدنا يمزقنا الخوف من الغد المجهول.

نهضنــا ذات صبــاح باكر علــى أصــوات مدوية تقترب مــن بيتنا، فخرجنــا مفزوعين، فإذا آلات حديدية ضخمــة تحيط بمنازل قريتنا، نزل منها أشخاص غرباء مدججون بالأسلحة لم يلبثوا أن هجموا علينا كالــكلاب المسعورة، وجمعــوا النساء والأطفال، واقتــادوا الرجال إلى جهــة أخرى، دخلوا المنازل يعيثون فيهــا فسادًا، ثم أشعلوا النيران في كل شــيء، ولــم ترتفع الشمس في الأفق حتى أضحــت قريتنا ركامًا من رمــاد ليس فيها سوى أطفال يبكون ونســاء ينتحبن بينما اقتيد الرجال إلى السجون وربما إلى الموت.

في تلــك الليلة لم ينم أحد، بل تجمعنا في حلقة كبيرة نبكي ديارنا ورجالنــا، وفجــأة وقف أمامنا ثلــة من الرجال لم نتبيــن ملامحهم إلا حيــن ظهر القمر مــن وراء غيوم كثيفة سوداء، تمعنــت وجوههم، فإذا زوجي واقــف يتقدمهم، فأسرعت إليه أبكــي وأحكي له ما حدث، فهدأ من روعي ثم توجه إلينا بالحديث، قائلاً:

«لا تخشوا شيئًا أيها الإخوة، ما عساهم يفعلون أكثر مما فعلوا؟... لقد أخذوا منا كل شيء وحرمونا من أدنى حقوقنا، وها هم الآن يحاولون نشر الموت والرعب في أوساطكم؛ لنستسلم لهم وينقطع آخر أمل لنا في الحياة الكريمة. إننا في الجبال نعد العدة وندبر الخطط للهجوم عليهم حينًا بعد آخر، فبالأمس فقط دمرنا أحد حصونهم المنيعة وقتلنا رجالهم ثم أخذنا أسلحتهم؛ لنضربهم بها، وها هم اليوم ينتقمون منكم... لكننا ندعوكم للصبر والدعاء فليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب، وسننتصر اليوم أو غدًا إن شاء الله».

أدركنا ليلتها أننا لا بد أن نجاهد إلى جانبهم وإن لم نحمل السلاح معهم.

أصبح العسكر يترددون على قريتنا يحرقون ويقتلون، وفي أكثر من مرة أخذوا «عمارًا» معهم يعذبونه ويسألونه عن أبيه، ثم يطلقون سراحه. وذات يوم هبط زوجي إلينا وطلب مني إعداد البيت لعقد اجتماعات سرية فيه؛ لأن موقعه أسهل من الجبال للمجاهدين الذين يأتون من كل حدب وصوب، وبعدما أكمل حديثه همّ بالمغادرة حين استوقفه «عمار» قائلاً في إلحاح:

«سأذهب معك يا أبي، هذه المرة ولن تمنعني من ذلك، لقد كبرت ومن واجبي حمل السلاح معكم والجهاد إلى جانبكم للدفاع عن وطني».

فقال له العربي بحنان:

«لكنك تجاهد معنا فعلاً... لا تنسَ أنك من يحمل لنا المؤونة واللباس، وأنك الوسيط المباشر بيني وبين إخواني المجاهدين في القرى المجاورة».

فقال عمار بحماس الشباب وثورتهم:

«لم يعد ذلك يشعرني بأني أجاهد فعلاً... أريد حمل السلاح، وقتل العـدو... ثم إنهم أصبحوا يشكّـون فيّ، وكثيرًا ما اعتقلوني؛ ليمطروني أسئلـة وعذابًـا، وأخشـى إن أخذونـي هذه المـرة ألا يطلقـوا سراحي أبدًا..»..

ونظر زوجي تجاهــي كأنه يطلب رأيي، فأومأت إليه أن يأخذه معه، فربت على كتفه في رفق وسلمه أحد رشاشاته، وقال له مبتسماً:

«حسنًــا، يبدو أنك أصبحت رجــلاً دون أن أدرك ذلك، هيا لنذهب قبل أن يباغتنا العدو بإحدى زياراته».

وتعلــق به ابن آخر لي – وكان يومها في نحو الرابعة عشرة – وقال غاضبًا:

«وأنا يا أبي، هل ستبقيني هنا مع النساء والأطفال؟!!..».

فقال، وقد علا وجهه ابتسامة لا أنساها أبدًا:

«ماذا دهاكم يا أولاد؟! أتعتقدون أننا ذاهبون لفسحة، إنها الحرب حيث لا شيء غير الموت والدمار».

وأخذ يمسح على رأس ابنه، ويقول له:

«أنــت الآن يــا بني، أصبحــت رجل البيــت فاعتنِ بأمــك وإخوتك، وعندما تكبر أصحبك معي إلى الجبل... هل اتفقنا؟..»..

وبالطبــع لم يعجبه الأمر، إذ كان يوقــن أنه أصبح رجلاً، لكن قول

أبيــه «رجل البيــت» أشعــره بالفخر وجعلــه منذ ذلك اليــوم يتصرف كالرجال تمامًا!!..

غابت أخبار زوجي وولدي عني، ولم تعد تصلني إلا أخبار الهجمات التي يقومون بهــا والعمليات الفدائية التي يدبرونهــا، وازدادت وحشية الاستعمــار الفرنسي الذي علم بالأمر، فحشــد جيوشه ذات مساء نحو قريتنــا، ولم يغادرهــا إلا وكل البيوت حطام، والنيــران مشتعلة في كل مكان بفعل القذائف التي كانوا يلقونها عشوائيًّا؛ ليجبرونا على الرحيل بعيدًا عــن أراضينا، ولم نجد بدًا من الجري في كل الاتجاهات؛ هروبًا مــن تلــك القنابــل التي تسقــط علينا من السمــاء، ليلتهــا صرخت في أطفالــي أن يشد بعضهــم بأيدي بعض، وجرينا نحــو المجهول هاربين من رائحة المــوت والدخان، لكن القنابل لاحقتنا وتفجرت واحدة بيننا شتــت جمعنــا، وسقطت والدم ينــزف مني، ثم تماسكــت حين تذكرت أطفالي ونهضت أبحث عنهم وقد أخذ الرعب مجامع قلبي... لن أنسى مــا حييت تلك اللحظة التي وجدت فيها اثنيــن من أطفالي غارقين في دمائهما وكل منهما ممسك بيد أخيه... وباقي أولادي بين جريح وفاقد للوعــي... صرخــت حتى رددت السمــاء صراخي، وبكيــت حتى أعياني البكاء وجلست في مكاني جامدة لا يرتد لي طرف حتى طلع الصباح.

دفنت طفليّ بيدي، وجمعت حولي من تبقى منهم، واستندنا إلى أحد الجبال يخيم علينا حزن عظيم وذهول كاد يفقدنا الصواب، وعدنا إلى قريتنــا بعد أيام قليلة، فأنــا لا أعرف مكانًا آخر أذهب إليه، كما فكرت في زوجي وابني أين سيجداني إذا رحلنا إلى مكان آخر. ووجدت أرضنا تتألم ألمــي، فقد لحقها الدمار وتشتت أهلهــا... ووصلت بيتنــا، فإذا

به قد سُــوِّي بالأرض... ولم أدرِ ماذا عسانــي أفعل، فجلست أنظر إلى أطفالــي وقد أنهكهم الجوع والتعب والخــوف، وإلى البيت المهدم كيف أعيــد بنــاءه بمفردي، ونهض ابنــي «رجل البيت» وآثــار الدموع لا تزال عالقة بأهدابه ومضى ينظف المكان، وهو يقول بصوت أجش:

«لا تخافــي يا أماه، سنعيــد بناء بيتنا وسنقيم فيــه ولن نرحل عنه أبدًا..».

وانضــم إليــه إخوتــه يساعدونــه، فبكيــت وأنــا أزداد إدراكًا لثقل الضريبة التي ندفعها من أجل حرية بلادنا، ونهضت بدوري أساعدهم، وقد سكن قلوبنا إحساس جميل بحب عظيم يجمع بيننا في هذه المحنة العصيبة... لا يمر علينا يوم إلا وفاجأنا الفرنسيون بدباباتهم وقنابلهم وكلابهم المتوحشة حتى اعتدنا عليهم وأصبحنا ننتظر قدومهم ونحن متشبثــون بديارنــا وأراضينا، وهلك منا الكثير، ولــم يبقَ في قريتنا إلا أفراد قلة تتجرع الموت البطيء ولا تموت.

وفاجأنــي زوجــي بالزيــارة ذات يــوم، كان شاحــب الوجــه، هزيل الجسم، واهن القوى، لم يبقَ معنا إلا دقائق قليلة، فهم يبحثون عنه في كل مكان. لم أتوقع مجيئه بمفرده دون ولدي، وعندما سألت عنه التقط أنفاسه.. وقال:

«لا تخافي إنه بخير».

«وأين هو؟ لماذا لم يأتِ معك؟!..».

«إنــه حيــث يريــد أن يكــون، وحيــث يجــب أن نغبطه علــى وجوده هناك!!..».

«ماذا تقصد؟!!..».

«لقد مات ابنك شهيداً وهو يصرخ» «اللّه أكبر ولتحيا الجزائر».

لا أدري أي إحساس انتابني لحظتها، وأنا أسمع كلمات زوجي، كان من الممكن أن أبكي وأنتحب كما تفعل النساء في موقف كهذا، لكن ما سمعته أشعرني بالاعتزاز أن قضى ولدي شهيدًا فداء للوطن، وتخيلته في الجنة ينعم بجزاء ربه على أن مات ميتة الأبطال، وملأني اللّه صبرًا، فلم أذرف غير دموع اللوعة لفراق عمار.

ومضت سبع سنوات عجاف ذقنا فيها مرّ الحياة، وبدأ الجنود الفرنسيون يتقهقرون أمام حشود المجاهدين الجزائريين وهم يعجبون لإصرارهم على النصر ولا مبالاتهم، بالموت، بلغ لهب الثورة مداه فأحرق معسكرات العدو وهدم بيوتهم، فأصبحوا لا يأمنون على حياتهم في أي مكان يحتمون به، وأيقنوا استحالة بقائهم على أرض لم تكن أبدًا لهم ولو بقوا فيها أكثر من مئة عام!!

وبدأت تباشير الصبح تظهر، وأصبح العدو يقوم بعمليات تمشيط واسعة؛ بحثًا عن الثوار الأحرار؛ لينتقم منهم قبل رحيله. ذات ليلة اجتمع ببيتنا عدد من المجاهدين يخططون للهجوم على آخر معاقل العدو في منطقتنا، أعددنا لهم العشاء، فتناولوه وفرحة النص تتراقص في أعينهم، وفجأة لمعت أضواء قوية وسمعنا خلف الجدران أحدهم يقول بلهجة جزائرية:

«هيا اخرجوا أيها الأوغاد، فأنتم محاصرون من كل جانب ولن ينجو منكم أحد».

وأطل أحدهم من الباب، فإذا بعدد كبير من العسكر يحيط بالمكان متحفزين للقتل وإراقة مزيد من الدماء، وهمس العربي لأصحابه:

«هناك من بلغ العدو باجتماعنا هذه الليلة... الخائن الحقير..».

فقال أحد أطفالي، وقد عرف صوت المتحدث:

«إنه الراعي الذي يعمل عندنا... تسلل بالانصراف حين وصلتم..».

«لنقتلنه شر قتلة؛ ليكون عبرة لأمثاله من الجبناء».

وتقدم أحدهم قائلاً:

«ماذا سنفعل؟».

ودوي الصوت من الخارج يقول:

«إن الضابط الفرنسي يطلب قائدكم حيًّا، إن لم يخرج ينسف البيت بمن فيه».

تبادل المجاهدون النظرات وهمّ زوجي بالخروج، فاستوقفه أصحابه قائلين:

«لا.. لن تخرج إليهم، إننا بحاجة إليك... وليخرج إليهم أي واحد منا فهم لا يعرفون القائد من يكون».

ولأولا مرة عرفت أن زوجي هو قائد منطقتنا، وأن كل شيء كان يسير حسب أمره، فشعرت نحوه بإحساس غريب ربما هو أسمى من كل إحساس في الدنيا.

رفض زوجي أن يضحي أحد إخوانه بحياته من أجله، وحاول الخروج إلى العدو لكنهم أمسكوه بالقوة، وهمّ أحدهم بالخروج؛ ليسلّم نفسه على أنه القائد، فاعترض زوجي قائلاً:

«لن يخرج إليهم أحد... إنهم سيقتلوننا في كل الأحوال، وإن أمسكوا بنا أحياء مثلوا بنا، وسامونا سوء العذاب قبل قتلنا... لندافع عن أنفسنا لآخر نفس في حياتنا ولنحرمهم شرف تعذيبنا ونحن على أعتاب الاستقلال».

وتكومنا نحن النساء والأطفال في ركن من البيت وأخفينا رؤوسنا بين أيدينا ونحن نسمع طلقات الرصاص المتبادلة، وانقسم المجاهدون إلى أربع مجموعات يضربون العدو من كل الجهات ويقذفونهم بالقنابل اليدوية، واستطاع بعضهم التسلل خارج أسوار المنزل والتوجه إلى الجبال المجاورة لإبعاد المعركة عن البيت.

لحق العدو بالفارّين تتقدمهم كلابهم الضخمة التي توقفت عند خندق، وهي تنبح بشدة، وكأنها تقول لأسيادها:

«تقدموا، إنهم مختبئون هنا!!..».

قال زوجي لرفيقه:

«لقد نفد سلاحنا ولم يبقَ معنا غير هذه القنبلة وبعض الرصاصات، وإن بقينا هكذا فسيأخذوننا سجناء... فلنقاتل يا إخوان، ولنقتل واحدًا من أعداء الله والوطن؛ حتى لا نساق إلى الموت أذلة صاغرين».

وخــرج ثلاثتهــم من الـخندق بعدمــا رموا تلك القنبلــة على إحدى سياراتهــم ففجرتهــا، وأطلقــوا رصاصاتهم على العــدو، وهم يرددون بصوت واحد رددت صداه تلك الجبال الشامخة:

«اللّه أكبر، ولتحيا الجزائر».

وسقط زوجي وإخوانه شهداء من أجل أن تحيا الجزائر.



رحلة البحث عن النصف الآخر

جلست «نــوال» أمام مرآتها فــي الغرفة التــي تتقاسمها مع أختها الكبــرى «منــال»، وبأطـراف أصابعها الرقيقة أخـذت تتحسس ملامح وجهها، وتمررها على حاجبيها الرفيعين وعينيها الزرقاوين بأهدابهما الســوداء الطويلة، وأنفهــا الصغير المدبب وشفتيهــا الرقيقتين اللتين تخفيــان أسنانًا كقطع البلور، ثم علــى بشرتها الناصعة البياض وكأنها تبحــث عــن مواطن التغيير فــي كل خلية مــن خلايا وجههــا الجميل.. وهالهــا تلك التجاعيد الخفيفــة التي لم يستطع مكياجهــا الصارخ أن يخفيها، واضطرب قلبها في صدرها حين لمعت شعيرات بيض تتحدى سواد شعرها، ولم تلبث أن همست مذعورة:

«اللعنــة.. برغم أننــي أبذل جهــدي ووقتي لإخفاء هــذه التجاعيد بــكل أنواع المكياج ومختلف الأقنعة، غير أنها تأبى إلا أن تظهر... حتى الشعرات البيض يزداد عددها كل يوم، كأنها تصـرخ: أمعنــوا النظـر، لقد قاربت (نوال) الأربعين، ولم تتزوج بعد!!..».

كارثــة... إنها كارثة بالنسبة لنوال ألا تتزوج – هي بالذات – حتى هذه السن المتأخــرة... لكم تباهت بجمالها أمام زميلاتها وقريباتها، وكــم اعتبرته جــواز سفرهــا إلى عالم الرجــال، وفي الأخيــر سافرت الزميلات والقريبات وبقيت وحدها تنتظر في محطة العوانس!!...

مـن كان يظن أن «نوال» الأستـاذة الفاتنة صاحبة الجمال الساحر والقـوام الرشيق التي لم تخرج من بيتهـا يومًا إلا وهي في كامل زينتها وأناقتهـا كأنهـا عارضة أزيـاء... مـن كان يتوقع أن تتجـاوز الخامسة والثلاثين ولم تدخل قفص الزوجية بعد!... عجبًا لأمر الدنيا، تزوجت الدميمـات والجاهـلات، ولم تستطع هي بـكل ما تملكه بيـن يديها أن تحذو حذوهن ويكون لها مثل غيرها زوج وبيت وأطفال!!...

لـم تستطع حبس دموعها، وهي تشعـر بالاختناق لهذه الأفكار التي تتوالـى على مخيلتها حيـن دخلت أختها «منال» عائـدة من المستشفى حيث تعمل طبيبة منذ عشر سنوات، وانتبهت إلى دموع أختها، فجلست إلى جانبها تسائلها في رفق:

«لماذا تبكي نوال أخت منال الوحيدة؟!..

فصمتت نوال ولم تجبها، فاقتربت منها منال هامسة:

«لا تقولي: إن هناك من عاكسك في المدرسة أو ...».

فقاطعتها نوال:

«اطمئنـي لم يعد هناك من يعاكسني، ولا أحـد يلتفت إليّ ألبتة... لقـد أصبحـت لا أستهـوي إلا الشيـوخ والمتزوجين، أمـا غيرهم فهم منصرفون عني إلـى الصبايا ذوات العشرين ربيعًا... لقد ولى زماني، هذه هي الحقيقة..».

فقالت نوال مبتسمة:

«الآن فهمت المشكلة... الزواج طبعًا..».

فدفعتها نوال عنها في قوة غاضبة:

«يالبرودة أعصابك، وعدم اهتمامك! ألا تعُدِّين الزواج مشكلة؟!... إنــه مشكلــة حقيقيــة لكل امــرأة في هــذا الوجــود وكأنك غيــر معنية بالأمر!!..».

فقالت منال في هدوء:

«بالطبع أنا معنية بالأمر ككل نساء الأرض، ولكن...».

فقاطعتها نوال منفعلة:

«لكــن مــاذا؟... انظــري إلى نفســك لقد جــاوزت الأربعيــن، ولم تتزوجــي بعد، بــل لا أحد تقدم لخطبتــك منذ سنــوات وكأنك خرجت مــن قائمة النساء، وبرغم ذلك فأنت لا تفكرين في شيء غير عملك، أتراك تزوجت الطب والمرضى؟!!..».

تمتمت نوال مطرقة:

«لقد اخترت طريقي، وأنا راضية عن حياتي.

«راضية!!... إنك تكتمين في نفسك وتتعذبين في صمت، أتعتقدين أننــي لم أسمعك وأنــت تبكين ليلاً وتحاولين كتم صوت أنينك؛ حتى لا يرى أحد دموعك؟!..».

آثرت منال الصمت، فأضافت نوال قائلة:

«كيــف تريديــن أن يخطبك أحــد، وأنت لا تهتمين بنفســك أبدًا؟.. انظــري في المــرآة، إنك تبدين بالحجاب وشعــرك مغطى بهذا الخمار

كأنك عجوز في الستين!!... ووجهك، إنك لم تضعي عليه مسحوقًا واحدًا طوال حياتك، بل حتى سلوكك يثير الغرابة، كم مرة أزورك بالمستشفى، فإذا بك تتعاملين مع زملائك من الأطباء والممرضين تعامل الرجل مع الرجل لا تعامل الأنثى، فلا ابتسامة ولا كلمة مزاح ولا نظرة خاطفة... لقد سمعتهم يتمتمون حولك – «إنها معقدة جدًّا ومتكبرة!!».... – هل يرضيك أن تكون لديهم هذه النظرة السيئة عنك؟!».

رفعت منال رأسها، بعد طول إطراق، وقالت:

«وأنت ما رأيك، هل أنا كما يقولون؟..».

«بالطبع لا، أنا أختك وأعرفك جيدًا وهذا ما يؤلمني حقًّا، أن تكوني على قدر كبير من الأخلاق والذكاء وطيبة القلب وصفاء النفس ولا يدرك من حولك كل هذا، وخاصة الرجال منهم... ولكن كيف يعرفون كل هذه الصفات فيك وأنت لا تتعاملين معهم إلا في إطار محدود جدًّا؟ وكيف يدركون أنوثتك وأنت تتشبثين بهذا اللباس في مثل هذا العصر؟!..».

فقالت منال:

«إنني لن أغضب ربي من أجل إرضاء الرجال، ولن أتنازل قيد أنملة عن لباسي وأخلاقي ومبادئي.. ولو دفعت الثمن حياتي نفسها..».

فحدجتها أختها بنظرة ساخرة، فقالت منال غير مكترثة بما يصدر عنها:

«وأنت يا أختي العزيزة، شاء الله أن تكوني نقيضي في كل شيء، رفضت ارتداء الحجاب برغم أنه أمر إلهي لا نقاش فيه، وقضيت

حياتـك كلهـا تفعليــن ما يحلو لــك في حريــة مطلقة... فمــاذا كانت النتيجة؟!..».

اضطربت نوال، ثم قالت:

«استمتعــت بحيــاتي، وعشت شبــابي لحظـــة لحظة... لست نادمة على شيء..».

«وماذا بعد الاستمتاع؟ هل بلغت هدفك؟!..».

«سيتقدم منير لخطبتي قريبًا، وعدني بذلك وأنا أصدقه».

«أيتها الساذجة البلهاء، أمــا زلت تصدقين وعود الرجال؟!... كم رجــلاً وعدك بالزواج، ثم ذهب إلى غيــر رجعة؟ أجيبيني بكل صراحة وصدق!..».

تغيــر وجه نــوال لسماعها هذه الكلمات، فجلســت إلى مرآتها مرة أخــرى وأخفت وجهها بين راحتيهــا وراحت تبكي، وقد شعرت أن أختها وضعــت يدهـا على الجـرح الذي يؤلمهــا وبصوت متهدج مبحوح، قالت تغالب دموعها:

«هذا هو سبب بكائي... برغم جمالي وأناقتي وذكائي، وبرغم أنني استهويــت عددًا لا يحصــى من الرجال، وتعرفت إلــى الكثيرين منهم، إلا أننــي اقتفيت آثــارك دون أن أشعر لأحمل معك لقب عانس!!... الآن فقط بدأت أشعر أنني كنت لعبة بين أيديهم جميعًا... كلهم مخادعون، كاذبون..».

وأخـذت تصـرخ بأعلى صوتهـا، فضمتها أختها إلـى صدرها وهي تقول:

«لو صادفت رجلاً أحبك بصدق لتزوجك، ولو التقيت رجلاً حقيقيًّا فـي حياتي لتزوجنـي، لكننا نعيش زمنًـا لا مكان للحـب الصادق فيه، ولا وجـود للرجل الذي يقدر أخلاق المـرأة في زمن التعفن والانحلال، القلوب لم تعد تتسع إلا للكذب والنفاق والخداع، والأرض لم تعد تحمل على ظهرها إلا أشباه الرجال... إنه قدرنا في هذا الزمن الرديء».

خفّ نحيب نوال، فقبلتها منال على جبينها، وقالت:

«لقـد أراد اللّه حمايتنا مـن أنفسنا، وممن هـم حولنا حين فرض علينا الحجاب، ووالدانا – حفظهما اللّه – تركانا نسلك طريقنا بحرية لفرط حبهما لنا، فسلكت – بفضل اللّه – سبيل الفطرة السليمة، بينما رفضت هذا السبيل وأغرتك الدنيا بمباهجها المزيفة، وأردت الاستمتاع بشبابك حتى ولو كان في ذلك غضب اللّه... فماذا كانت النتيجة؟!..».

لم تجب نوال، فواصلت منال تقول:

«فـي ظاهر الأمر نحـن نبدو سـواء، فتاتان تعانيـان العنوسة بكل أبعادهـا، لكن... ما أعظم اختلافنـا!.. إنني راضية بحياتي، قانعة بما كتبـه اللّه لي، أعيـش حياة نفسية مطمئنة عـدا بعض لحظات الضعف التـي أمر بها بيـن الحين والآخر، وهـذا من طبيعة الإنسـان، وخاصة المـرأة... إننا لسنـا آلات تتحرك بـلا مشاعر وأحاسيسـ... أما أنت فحياتـك مضطربة قلقة، تعيشيـن جحيمًا نفسيًّـا؛ لأن الهدف الوحيد الذي رسمته لحياتك قد لا يتحقق أبدًا..».

فقاطعتها نوال صارخة:

«لا تقولـي هذا، سأقتـل نفسي إن لم يتحقق حلمـي بالزواج، وبمن أريد!..».

فضحكت منال، وقالت:

«المؤمـن لا يقتل نفسـه؛ لأن هدفه في الحياة لم يتحقق، بل يصبر ويسلم أمره لله يفعل ما يشاء».

ودخلت والدتهما تبتسم ابتسامة من يخفي أمرًا، جلست أمامهما، ثم قالت ضاحكة:

«لكما عندي خبر قد لا تصدقانه أبدًا..».

شخصت أعين الفتاتين، واستعجلتاها؛ لتقول ما لديها:

«طبيب يعمل مع منال، تحدث اليوم إلى والدكما يخطب...».

وصمتت، فقفزت نوال وأكملت الجملة بفرحة كبرى:

«منال!!... أخيرًا جاء الفرج..».

فقالت الأم، وقد شحبت تلك الابتسامة:

«بل يخطب نوال!!..».

«نوال؟!..».

«أنا؟!..».

فقالت الأم:

«أنـا أيضًـا فاجأنـي الخبر، واعتقـدت أنه مـادام زميـلاً لمنال، فسيخطبهـا هي، لكنه طلب نوال للزواج وأخبـر والدكما أنه أعجب بها كثيرًا حين رآها بالمستشفى تزور أختها..».

سكتت الأم على مضض، ثم توجهت إلى نوال بالحديث، قائلة:

«لكن لديه شرط واحد..».

«شرط؟!..». سألت نوال.

«إنـه يطلب منك أن ترتدي الحجاب... فهـو – كما قال – لا يريد لأي رجل أن يرى جمالك..».

تبادلـت الفتاتان نظـرات الدهشة والاستغراب، ولـم تلبث نوال أن قالت:

«إذا كان يريد ذات الحجاب فلماذا لا يخطب منال، فهي تملك من جمال النفس والروح ما يفوق جمال شكلي... وهي امرأة ككل النساء لا يعيبها شيء».

ردت منال، وعلامات الأسف بادية على وجهها:

«أغلب الرجـال يلهثون وراء جمـال المرأة... الديـن والأخلاق لم يعـودا مقياسًا للزواج، لذلـك كثر الطـلاق والأزواج التعساء والأطفال المشتتون».

فقالت نوال، غاضبة:

«وأنا لن أقبل بهذا الرجل أبدًا، ولو بقيت عانسًا طوال حياتي!!..».

لم تذق الأختان طعم النوم تلك الليلة، فكل واحدة منهما جرحت في كبريائها كامرأة.

في الصباح، توجهت منال لعملها كالمعتاد، وكأن شيئًا لم يكن، بينما بقيت نوال في غرفتها اليوم كله وما أعقبه من أيام، تستعرض في ذاكرتها ما سبق من حياتها، وتعيد التفكير في كل شيء بجدية لم تعهدها في نفسها.

ذات يوم، فاجأت الجميع، وهي تخرج من غرفتها ترتدي ملابس أختها واضعة الخمار على رأسها، ماسحة كل أثر للمساحيق على وجهها، لم يصدق أحد من عائلتها حين رأوها على هيئتها الجديدة، وقبل أن تُسأل عن هذا التغيير تأبطت ذراع أختها، وقالت باسمة:

«لن أقبل بمن يشتريني لجمالي... سأسير مع أختي منال في الطريق نفسه نحو الهدف نفسه، حتى لو خسرت العالم كله، المهم ألا أخسر نفسي».

تعانقت الأختان، وخرجتا من البيت معًا تداعب سعادة غامرة قلبيهما.

منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية

١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.

٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.

٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.

٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبدالباسط بدر.

٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.

٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.

٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي.

٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.

٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.

١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبدالدايم.

١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو.

١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.

١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.

١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.

١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.

١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.

١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليمة الحمد.

١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.

٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.

٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».

٢٣- أدب المرأة .. دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للأديبات الإسلاميات.

٢٤- الآمال صارت آلاماً، رواية من الأدب التركي، تأليف د. نور الله كنج، ترجمة د. عوني لطفي أوغلو.

٢٥- نحو كوكب الحرية - رواية من الأدب الفارسي، تأليف محمود حكيمي، ترجمة عثمان أيزدبناه.

٢٦- مملكة النحل - رواية من الأدب التركي - تأليف علي نار، ترجمة كمال أحمد خوجه.

٢٧- أقباس - ديوان شعر - طاهر العتباني.

٢٨- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة - د. كمال سعد خليفة.

٢٩ - عقد الروح - ديوان شعر - نبيلة الخطيب.

٣٠- المفسدون في الأرض - مجموعة قصصية - فاطمة محمد شنون.

٣١- فوهة الجرح - مجموعة قصصية - سكينة قدور.

٣٢- الأرض الجريحة - مجموعة قصصية - صورية إبراهيم مروشي.

صدر في سلسلة أدب الأطفال

١- غرد يا شبل الإسلام - شعر - محمود مفلح.

٢- قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.

٣- تغريد البلابل - شعر - يحيى الحاج يحيى.

٤- مذكرات فيل مغرور - د. حسين علي محمد.

٥- أشجار الشارع أخواتي - شعر - أحمد فضل شبلول.

٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.

٧- باقة ياسمين - قصص للأديب التركي علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.

٨- أغنية للغيمة البعيدة - شعر - أحمد زرزور.

٩- مغامرات عصفور - قصص - عبدالجواد الحمزاوي.

١٠- شيماء - قصص - حسن القشتول.

١١- مدينة الرحمة - مسرحية - محمود عبدالله محمد.

١٢- بيض من ذهب - مسرحية - لطفي عبدالمعطي مطاوع.

١٣- سجين الهاء والواو - مسرحية - محمد عبدالحافظ ناصف.

● تطلب من رابطة الأدب الإسلامي العالمية:
المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤- ص.ب ٥٥٤٤٦
هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨-٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦
web page adress: www.Adabislami.org
E-mail: info@adabislami.org

المؤلفة في سطور

- صورية إبراهيم مروشي.
- من مواليد سريانة عام ١٩٦٦م.
- مهندس دولة في الهندسة المعمارية، جامعة قسنطينة ١٩٩٢م.
- كاتبة قصة قصيرة ورواية. نشرت في العديد من المجلات العربية مثل المشكاة المغربية، والشقائق السعودية.
- فازت مجموعتها القصصية (الأرض الجريحة) بالجائزة الثالثة في مسابقة الأديبات بالرابطة.
- فازت بالجائزة الأولى في الرواية بمسابقة الإبداع الأولى التي أجراها موقع (لها أون لاين).
- فازت بالجائزة الثالثة في القصة القصيرة بمسابقة الإبداع الثانية التي أجراها موقع (لها أون لاين).
- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.




الأرض الجريحة
(قصص قصيرة)
العبيكان
Obeikan